



قطاع الشؤون الثقافية

رسالة الخليفة الرشيد علي بن أبي طالب عليه السلام في أصول الدين

أصول عظيمة من قواعد الإسلام

البراهين العقلية

على وحدانية الرب ووجوه كماله

الدلائل القرآنية

في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية

رافعة في الدين الإسلامي

الدين الصحيح

مجاناً لجميع المشايخ الكرام

أصول الدين

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن نصر السعدي

بمراه



0096599494122



www.IBNABITALIB.com



@IBNABITALIB



IBNABITALIB1@gmail.com

أصول عظيمة من قواعد الإسلام

البراهين العقلية

على وحدانية الرب ووجوه كماله

الدلائل القرآنية

في أن العلوم والأعمال النافعة الحضريّة

راخلة في الدين الإسلامي

الدين الصحيح

يحل جميع المشاكل

أصول الدين

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمته الله



أُصُولُ عَظِيمَةٍ
مِنْ قَوْلِ عَبْدِ الْإِسْلَامِ

تَأَلِيفُ
الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ

عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ

بِإِذْنِ اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ إِلَى يَوْمِ
الدِّينِ.

هذه قواعد وأصول عظيمة من قواعد دين الإسلام^(١).

(١) اعتمدنا في مراجعة هذه الرسالة على النسخة التي اعتنى بها شيخنا فضيلة الشيخ
أ.د. عبدالرزاق البدر - حفظه الله -، وقد ذكر في مقدمتها (ص: ٨): أن ما لم يتبين له من
الكلمات المطموسة في المخطوط - جعل مكانها نقطاً بين معقوفين وما استظهره من خلال
السياق أثبتته بين معقوفين.

القاعدة الأولى

الدين كله مبني على عبادة الله وحده، والاستعانة به وحده

كما صرّحت به هذه السورة الكريمة، وفي القرآن الجمع بين هذين الأمرين في مواضع متعددة؛ كقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [الممتحنة: ٤]، وغير ذلك من الآيات.

وفي الأحاديث عن النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من هذا شيء كثيرٌ كقوله: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله»، «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

وبتتبع العبد لعبادة الله واستعانته به، تكمل أموره الدينية والدنيوية، فعبادته الله: أن يقوم العبد بتوحيد الله وعبوديته الظاهرة والباطنة، المالية والبدنية، والمركبة منهما، المتعلقة بحقوق الله تعالى، والمتعلقة بحقوق خلقه، ومن ذلك القيام بالمصالح الكلية النافعة للمسلمين في دينهم ودنياهم، ويكون هذا القيام مصحوباً بثلاثة أمور:

- قوة الجد والاجتهاد، بحسب ما يستطيع العبد.
- وقوة الاعتماد على الله في تيسير ذلك، الأمر الذي يحاوله العبد مع الثقة التامة بالله في تيسيره.

● وكمال الإخلاص لله، بحيث لا يكون الحامل له على ذلك غرضٌ خسيسٌ، ولا قصد مراعاة الناس وسمعتهم، ولا عصبية وطنية أو قومية أو جنسية؛ بل الحامل له على ذلك إرادة رضا الله، وحصول ثوابه؛ ومن ثوابه: ما يترتب عليه من المصالح النافعة.

وهذا المعنى الكلي العظيم يتضح لنا أن القيام بجميع الأسباب النافعة، والقيام بما يتممها ويكملها هي من أعظم ما يدخل في هذه القاعدة؛ فإن القيام بها عبادة لله، ووسيلة إلى عبادة الله، فكما يدخل في عبادة الله ما أعان عليها من السعي والمشى والرُّكوب إلى العبادات، فيدخل فيها اكتساب الأموال من حلِّها، للقيام بالزكَّوات وواجب النفقات، ولقيام الأعمال النافعة التي لا تقوم إلا بالأموال.

ويدخل فيها أيضًا تعلُّم الفنون والصناعات العصرية، والاختراعات التي فيها استعداد المسلمين لمقاومة أعدائهم، وللسلامة من شرورهم، وذلك بحسب المستطاع.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فكلُّ ما يستطيعه المسلمون من إعداد القوَّة العقلية والصناعية والسياسية والفنون العسكرية، وما أشبه ذلك، فإنه يدخل في عبادة الله وفيما يعين عليها، فإنَّ الجهاد الذي هو بذلُّ الجهد في مقاومة الأعداء من أجلِّ العبادات، فما يُعين عليه فإنه منه.

فبهذا يُعلم أنّ المسلمين بالمعنى الحقيقي أكمل الخلق في فعل الأسباب النّافعة؛ لأنهم يُبدون فيها مقدورهم، مستعينين بالله في حصولها، وفي تكميلها، وفيما لا يقدرّون عليه منها، وفي إنجاح أعمالهم، وحصول مقاصدهم.

فليس بعد هذا الكمال الذي حتّ عليه الدّين الإسلامي كمال، ولا فوفه مُرتقى؛ حيث يموّه الدّعاة إلى الإلحاد أنّ الدّين الإسلامي يثبّط العاملين، ويُضعف نفوسهم، وهذا من المكابرة والتجري والكذب الصّراح بمكان لا يخفى على من له أدنى مُسكة من عقل.

فإذا تبين أنّ الدّين الإسلامي الصّحيح يحثّ على القيام بالأسباب النّافعة، ويبعث الهمم والعزائم بالاستعانة بالله عليها، والثّقة به في تكميلها ونجاحها، فكم في الكتاب والسنة من الأمر بفعل الخيرات، وترك المنكرات، والأخذ بجميع الأسباب النّافعات.

فاعلم أنّ ههنا طريقين ذميين منحرفين في الأسباب، يبرأ الدّين منهما كلّ البراءة:

● أحدهما: مذهب الجبرية القائلين بأنّ العبد مجبور على أفعاله، وأنّ حركاته الاختيارية حركات اضطرارية، بمنزلة حركات الأشجار، وأنّ الأسباب لا تأثير لها في مسبباتها، وأنّ الله يخلق عندها لا بها، ويوجد الأشياء باقترانها عادة، لأنّها طريق ووسيلة إلى مقاصدها.

وهذا المذهب باطل شرعاً وعقلاً:

أما شرعاً؛ فإنَّ الكتاب والسُّنة مملوءان من ذكر إضافة الأعمال للعاملين، خيرها وشرها، وأنَّهم هم الذين يفعلونها طوعاً واختياراً، لا قسراً واضطراراً، ومملوءان من ذكر أنَّ الأسباب بها حصول مقاصدها، وهي الطَّرِيق الوحيد لسعادة الدُّنيا والآخرة، وأنَّ الكسل عنها موجبٌ للحرمان، والضعف فيها داعٍ إلى الخسران، كما تقدَّم أنَّ الشَّرْع يحثُّ عليها غاية الحثِّ، مع الاستعانة بالله عليها.

وأما بطلان هذا القول عقلاً؛ فلأنَّه من المعلوم بالضرورة أنَّ أفعال العباد، بل والحيوانات، تقع باختيارهم وإرادتهم، إن شاءوا وأرادوا وفعلوا، وإنَّ أرادوا تركوا، وأنَّه لو لا أنَّ العباد تقع أفعالهم طوع اختيارهم لَمَا كان للأوامر الشرعيَّة والعرفيَّة فائدة، فكيف يؤمر ويوجَّه الخطاب إلى من لا قدرة له على أفعاله؟! وكيف يُوجَّه النهي واللَّوم على من لا يقدر على ترك النَّواهي؟!!

فهذا معلومٌ فسادُه بالضرورة من الشَّرْع، وبيداهة العقل.

● وأعظم منه بطلاناً وأشدُّ فساداً: مذهب الطَّبائعيِّين في الأسباب، الذين يرون الأسباب جاريَّة على مقتضى الطَّبيعة ونظام الكون، وأنَّها لا تعلق لها بقضاء الله وقدره، وأنَّ الله لا يقدر على تغييرها ولا منعها ولا إعادتها.

وأهل هذا المذهب معروفون بالخروج عن ديانات الرُّسل كلِّهم؛ لأنَّ هذا القول الخبيث مبنيٌّ [على] نفي الإيِّمان بالله، ونفي ربوبيته، والرَّبُّ

في الحقيقة عند هؤلاء هي الطبيعة، فهي التي تتفاعل وتتطور وتُحدث الأشياء كلها.

فهؤلاء الملحدون لا يُثبتون لله أفعالاً، ولا يثبتون أنه يُثيب الطَّاعين بالنعم والكرامات في الدنيا والآخرة، ولا يعاقب العاصين بالنقم في الدنيا والآخرة، وينفون معجزات الأنبياء الخارقة للعادة كلها، وكرامات الأولياء، ويقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجمانية: ٢٤].

وهذا المذهب الذي هو أبطل المذاهب الذي تنزّه عنه اليهود والنصارى وكثير من المشركين فضلاً عن الدين الإسلامي، قد اغترّ به بعض الكتّاب العصريين، وأرادوا من سفاهتهم وجرائمهم العظيمة أن ينسبوه إلى دين الإسلام.

ودين الإسلام وسائر الأديان بريئة من هذا القول الخبيث، فهو في شقٍّ، وأديان الرُّسل في شقٍّ آخر.

الرُّسل والشَّرائع تثبت ربوبية الله وأفعاله، وقضائه وقدره وانقياد العالم العلوي والسُّفلي لإرادة الله وقدرته، وهؤلاء يُنكرون ذلك، والرُّسل والشَّرائع تثبت أن الأسباب والمسبِّبات محلُّ حكمة الله، وأنَّ الله قد جعلها على نظامٍ حكيم، دال على كمال حكمة الله، وانتظام أمر الدنيا والآخرة، وأنَّه لا يمكن أحداً أن يغيّر سنن الله، ولا يحوّلها، ومع هذا فإنَّها تابعة لمشيئة الله وإرادته، لا يستقلُّ سببٌ منها إلا بإعانتة، وقد يمنع بعض الأسباب، ويغيّر بعض الأسباب ليري عبادَه أنَّه هو المتصرِّف المطلق.

فقد أوقع الله الأخذات الخارقة بالمكذِّين بالرُّسل، وأكرم أنبياءه وأولياءه بالنجاة في الدنيا والآخرة، فأهلك قوم نوح بالطوفان، ونجَّى نوحًا ومن معه من المؤمنين، وجعل النَّار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وأعطى موسى من الآيات كالحية والعصا وقلِّق البحر، ما فيه أكبر عبرة بأنَّه المتصرِّف المطلق، وجعل عيسى يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنه.

وأعطى محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكرامات والخوارق الكونية ما لم يُعط أحدًا من الرُّسل، فانشقَّ له القمر، وسلَّم عليه الشجر والحجر، ونبع الماء من بين أصابعه، واستقى الخلق الكثير من الماء القليل، وأشبع الخلق العظيم من الطعام اليسير، وأبرأ الله بدعوته أمراضًا كثيرة، وأنزل الله الغيث بدعوته في قضايا كثيرة، وعصمه الله من النَّاس، ونصره في مواطن كثيرة نصرًا خارقًا للعادة، ونصر الله أمته في مواطن كثيرة، وأكرم الله الرُّسل والأولياء في أمورٍ خارقة للعادة.

وهذه الأمور كُلُّها ممَّا ينكرها أهل هذا المذهب الخبيث، فعُلم أنَّه مُنافٍ للإيمان بالرُّسل من كلِّ وجه، وأنَّ من زعم أنَّه يبقى مع صاحبه من الإيمان شيءٌ فهو مغرورٌ مكابر.

وأما بطلانه عقلاً وفطرةً؛ فإنَّ العقلاء كلَّهم مطبقون على انقياد العالم العلويِّ والسفليِّ إلى إرادة الله وقدرته، ولم ينكر ذلك أحدٌ إلا من جحد الله ولم يثبت وجوده.

وهؤلاء قد عُلم أنَّ عقولهم قد مرَّجت، وأنكروا الأمور المحسوسة التي لا يزال الله يُريها عباده في جميع الأوقات.

ومن فروع هذا المذهب: الإنكارُ بأنَّ الله ينقذ المضطرين، ويحيب دعوات الدَّاعين، ويغيث اللّهفات، ويكشف الكربات، وإنَّما هي عندهم الأسباب تتفاعل وتتغالب، فجحدا ما علّم بالضرورة من شرائع الأنبياء، وما أقرت به الخليقة واعترفوا به، وفُطروا عليه، وبذلك حكموا لأنفسهم بمفارقة العقل والدين.

ومن فروع ذلك إنكارُ قصّة آدم وإهباطه إلى الأرض، وخلق الله إياه وإيحاءه إليه، وجميع ما تحتوي قصّته مع زوجته ومع إبليس، وإنكارُ أنّه أوّل الإنسان، وزعموا أنّ الإنسان في أوّل أمره مكث مدّة طويلة لا يتكلّم، ولا يعبر عمّا في ضميره، ثم انتقل من ذلك الطور البهيمي إلى طور الإشارات، دون التكلّم باللغات، ثم مكث ما شاءت الطّبيعة - لا ما شاء الله!! -، فتطوّر وصار يتكلّم، فجحدا ما جاءت به الرُّسل، ونزلت به الكتب، وأتبعوا ما تحرّصه المعطلّون الملحدون الذين بنوا نظريّاتهم على تحرّصات لا تنبني على العلوم المعقولة ولا العلوم المحسوسة.

ومن فروع هذا المذهب الخبيث أنّ هذا العالم لم يزل ولا يزال، وأنَّ الله لا يغيّره ولا ينقل العباد من هذه الدّار إلى دار الجزاء، فأنكروا مقصود ما جاءت به الكتب السّمّاوية، والرُّسل الكرام، وما دلّت عليه الأدلّة العقليّة الصّريحة، التي لا تقبل ريباً ولا إشكالاً؛ فإنَّ الطّبيعة خلق من خلق الله، فهو الذي خلقها، وطبعها، ودبرها، وسخرها، فتبّأ لمن جعلها ربّه وإلهه، وهو يشاهد من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس أكبر الأدلّة والبراهين على

القاعدة الثانية

**الدين الحق هو ما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
من كتاب الله وسنته رسوله**

وهذا الأصل الكبير الذي صرَّح به الكتاب والسنة في مواضع كثيرة،
مثل قوله تعالى: ﴿ **أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ﴿ **اتَّبِعُوا
مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ** ﴾ [الأعراف: ٣]، ﴿ **وَمَا
ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَانَهُكُمْ عَنْهُ فَانتهُوا** ﴾ [الحشر: ٧]، ﴿ **أَتَّبِعْ مَا أُوحِيَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، ﴿ **فَمَنْ
اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى** ﴾ (١١٣) ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً
ضَنْكًا** ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن
قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ﴿ **قُلْ صَدَقَ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٩٥]،
﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا** ﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا** ﴾
[النساء: ١٢٢]، ﴿ **وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، في مواضع كثيرة،
﴿ **أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ (١) ﴿ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** ﴾ الآية [الفاتحة: ٦-٧]،
﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن**

سَبِيلِهِ ﴿ [الأَنْعَام: ١٥٣]، ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ
 وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ ﴿ [النِّسَاء: ١١٥]،
 ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿ [طه: ٤٨]، ﴿ لَا يَصْلَاهَا
 إِلَّا الْأَشْقَى ﴿ ١٥ ﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿ [الليل: ١٥-١٦]، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿ [المائدة: ٥٦]، ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ
 اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ ٦٢ ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا
 يَتَّقُونَ ﴿ [يونس: ٦٢-٦٣]، ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴿ [لقمان: ١٥]،
 ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا
 كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿ [النحل: ٨٨]، ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ
 لَهُ، شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿ ٣٦ ﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
 مُهْتَدُونَ ﴿ [الزخرف: ٣٦-٣٧]، ﴿ وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ
 مُّبِينٍ ﴿ [سبأ: ٢٤]، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ ٥٢ ﴾ صِرَاطِ اللَّهِ ﴿
 الآية [الشورى: ٥٢-٥٣].

فهذه الآيات الكريبات وأضعافها وأضعاف أضعافها، دلّت دلالاتٍ
 صريحة أنّها يتعيّن على الخلق اتّباع ما أنزل الله على رسوله من الكتاب
 والحكمة، وأنّ الهدى والفلاح والسعادة والنجاة في الدنيا والآخرة في اتّباع
 ذلك، وأنّ في ضدّ ذلك الضلال والهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة، وأنّ
 الصّراط المستقيم الذي من سلّكه في عقائده وأقواله وأفعاله وشؤونه الدنيويّة
 والدنيويّة هو سبيل الله الذي شرّعه على لسان رسوله محمّد صلى الله عليه وسلّم

من الإخبارات والأوامر والنواهي، وأنَّ وظيفة المكلفين أن يصدّقوا كلّ ما أخبر الله به ورسوله، ويطيعوا الله ورسوله في امتثال الأمر واجتناب النهي، وأنَّ السَّعادة والنَّجاة في هذا التَّصديق وهذه الطَّاعة، والشَّقَاء والعذاب في تكذيب الأخبار والتَّولي عن الأمر والنَّهي، وأنَّ من آمن وعمل صالحًا وسلك طريق الرِّسول فهو من أولياء الله وحزبه، ومن لم يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحًا فهو من أعدائه وحربه، وأنَّه يتعيَّن سلوكُ طريق المنيبين إلى الله في ظاهرهم وباطنهم، لا طريق الغافلين ولا المعرضين والمعارضين الصَّادين عن سبيل الله.

فهذه النُّصوص ونحوها صريحة أنَّه يجب أن يكون الأصل الذي إليه مرجع المكلفين كتاب ربِّهم وسُنَّة نبيِّهم، وأنَّ جميع المقالات والأحوال والأعمال والعلوم توزن بهذا الأصل، فما وافقه فهو الحق والصدق والصَّواب، وما خالفه وناقضه فهو الضَّلال والشَّقَاء، وأنَّ من جعل كلام أعداء الرُّسل هو الأصل، وغيره ما وافقه قبله وما خالفه رفضه، فهو محادٌّ لرسول الله، منابذٌ لدين الله، وأنَّ في مقدِّمة هؤلاء الملحدين من دعوا إلى رفض كلّ قديم، وجعلوه سُلَّمًا لهم وطريقًا لرفض الدِّين وعلومه وأعماله، وأنَّ هذه دعاية الحادية القصد منها الدَّعاية إلى نبذ الدِّين، واعتناق طريق الملحدين.

وأنَّ أهل العقول الصَّحيحة والألباب السَّليمة هم الَّذِينَ يدعون إلى رفض الشُّرور والفساد وأنواع الظُّلم، وإلى الحثِّ على الخير والصَّلاح والإصلاح.

فهذا هو الأصل الذي وافق عليه جميع العقلاء - أهل الأديان وغيرهم - وحيث كان هذا هو الميزان الذي لا يمكن كَلَّ أحدٍ إِلَّا الاعتراف به حتى المنصفين من الأجانب.

فعلينا وعلى الخلق كلهم أن يعرضوا القديم والحديث على هذا الأصل الجليل، وحيث عرض على هذا الأصل القديم والحديث وجد ما دلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة هو الخير وهو الهدى والسَّعادة؛ لأنَّه يدعو إلى الخير، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وقال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصَلِّحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

فما ثمَّ صلاح وخير ونفع ديني ودينيوِي إِلَّا والكتاب والسُّنَّة قد حثَّ عليه ورغَّب فيه، وبَيَّنَّ الطَّرِيقَ الموصلة إليه حتى الفنون والاختراعات والصِّناعات الحادثة التي فيها نفع للعباد وتقيهم من الشُّرور والفساد، وما من شرٍّ وضررٍ وفسادٍ إِلَّا وقد نهى الدِّين الإسلامي عنه سواء كان ذلك متقدِّمًا أو متأخرًا.

وأما تعنَّت الملحدِين الماديِّين بوجوب رفض القديم مطلقًا واعتناق الجديد مطلقًا، فهذا أصل لا يمكن أن يوافق عليه أحد من العقلاء؛ لأنَّ

القديم منه طيبٌ وخبيثٌ والحديد منه طيبٌ وخبيثٌ، فالطيبٌ يجب قبولُهُ مطلقاً، والخبيثٌ يجب رفضه مطلقاً، والطيبٌ الذي في الحديث إنما استفيد مما دلَّ عليه القديم من علوم وأخلاق وأعمال، فأصل الخير ومنبعه ما جاءت به الرُّسل ونزلت به الكتب.

ويقال لأهل هذه الدِّعَاية الخبيثة: هذه دعاية لا يمكن أن يوافق عليها أحد، حتى أنتم لا توافقون عليها!!، فإنَّكم تقبلون ما نقلتم عن أئمتكم، وتحشون على ذلك سواء كانوا من القدماء أو من الآخرين، فأصلٌ لا يوافق عليه أحدٌ من الخلق يجب أن نرفضه، وأن نرجع إلى الأصول الدِّينية والأصول العقلية.

أمَّا الأصول الدِّينية: فقد أريناكم بعض ما دلَّ عليه أشرف الكتب وهو القرآن بوجوب أتباع كتاب الله، وما دلَّ عليه ما جاء عن رسول الله، وأنَّه الخير والحق والهدى وما سواه شرٌّ وضلالٌ وشقاء.

وأما الأصول العقلية: فهلمَّ فلنتحاكم إلى هذه الأصول التي لا يمكن عاقلٌ أن يقدح بها، ومن قدح فيها فهو مكابر:

نتحاكم إلى الطيبِ والخبيثِ، فكلُّ طيبٍ من العقائد والأخلاق والأعمال والمقاصد والوسائل فعلينا أن نقبله، وكلُّ خبيثٍ من ذلك فعلينا أن نرفضه.

وهلمَّ فلنتحاكم إلى الخير والصَّلاح والإصلاح، وإلى الشَّرِّ والفساد،

فكُلُّ خَيْرٍ وَصَلَاحٍ وَإِصْلَاحٍ فَعَلِينَا أَنْ نَقْبَلَهُ، وَكُلُّ شَرٍّ وَفَسَادٍ فَعَلِينَا أَنْ نَتْرَكَهُ.

هَلُمَّ فَلتتَحَاكَمِ إِلَى مَا يَرْقِي الْخَلْقَ وَيُعَلِّمُهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَإِلَى مَا يَنْزِلُهُمْ وَيَجَلِّلُ أَخْلَاقَهُمْ وَأَدَابَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، فَتَقْبَلِ الْأَوَّلَ وَتَرْفُضِ الثَّانِي.

هَلُمَّ فَلتتَحَاكَمِ إِلَى مَا فِيهِ نَفْعٌ دِينِيٌّ وَدُنْيَوِيٌّ؛ نَفْعٌ حَقِيقِيٌّ فَتَقْبَلَهُ، وَمَا فِيهِ ضَرَرٌ دِينِيٌّ وَدُنْيَوِيٌّ فَتَرْفُضُهُ.

هَلُمَّ فَلتتَحَاكَمِ إِلَى مَا آثَرَهُ جَلِيلَةٌ وَعَوَاقِبُهُ حَمِيدَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَتَقْبَلَهُ وَتُقْبَلِ عَلَيْهِ، وَإِلَى مَا آثَرَهُ ذَمِيمَةٌ وَعَوَاقِبُهُ وَخِيمَةٌ فَتَدَعُهُ وَتَرْفُضُهُ.

هَلُمَّ فَلتتَحَاكَمِ إِلَى الْعَدْلِ وَأَدَاءِ الْحَقُوقِ - فِي حَقُوقِ اللَّهِ وَحَقُوقِ عِبَادِهِ - فَتَقْبَلَهُ وَتَدَعُو إِلَيْهِ، وَإِلَى الظُّلْمِ وَعَدَمِ أَدَاءِ الْحَقُوقِ الْوَاجِبَةِ فَلتَدَعُهُ وَتَتْرَكَهُ.

فَهَذِهِ الْأَصُولُ الْعَقْلِيَّةُ وَالشَّرْعِيَّةُ وَمَا أَشْبَهَهَا لَا يُدْعَى أَحَدٌ إِلَى التَّحَاكَمِ إِلَيْهَا [فِي أَبِي إِلَّا دَلَّنَا] عَلَى سَفَاهَتِهِ وَحَمَقِهِ وَمَكَابِرَتِهِ، فَالَّذِينَ الْإِسْلَامِي لَا يَأْبَى التَّحَاكَمَ فِي [عِلْمِهِ] وَأَخْلَاقِهِ وَأَعْمَالِهِ وَأَدَابِهِ كُلِّهَا إِلَى قَضَايَا الْعُقُولِ الَّتِي يَتَّفِقُ الْعُقَلَاءُ عَلَى [صِحَّتِهَا وَسَلَامَتِهَا]، بَلْ هُوَ الَّذِي دَعَا الْخَلْقَ إِلَيْهَا وَحَثَّهُمْ عَلَيْهَا، فَكَيْفَ يَأْبَى أَنْ يَحْتَكَمَ إِلَى مَا [تَقْتَضِيهِ] أَصُولُهُ وَأَسْئَلُهُ؟! وَأَمَّا إِطْلَاقُ الْمَحَاكَمَةِ إِلَى الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، فَهَذَا كَمَا تَقَدَّمَ لَا يُوَافِقُ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّهَا قَضِيَّةٌ مُخْتَلَةٌ مُتَزَعِّزَةٌ عِنْدَ النَّاصِرِينَ لَهَا؛ لِأَنَّهَا يَتَنَاقَضُونَ

[في رفض] القديم والرّد له، وفي قبول كلّ حديث؛ فمنه أشياء يقبلونها ومنه أشياء يرفضونها من وجه دال على فسادها من أنفسهم وحججهم، ووجه آخر: وهو أنهم إذا كانوا يرفضون القديم، ويرحبون بالجديد، فهذه قضية أول من يحظى بإبطالها واصفوها، وذلك أنهم إذا أسسوا لهم أمورًا يجرونها ويرونها هي الحق الذي يجب تقديمه ونصره، فإنّه إذا جاء من بعدهم، فإنّما أن يتبعوا ما أسسه الأولون، فينتقد أصلهم، وتصير الأمور الحادثة عند النشء الحديث لا يعبأ بها، وإنّما يحافظ على ما قاله الأولون، وهذا بعينه أكبر برهان على نفيها، وإن تسلسلت هذه القاعدة عند النشء الذي بعدهم، فيوجبون رفض ما قاله هؤلاء، واعتناق الأمور المتجددة، لم يثبت بأيدي الناس حق يكون له الإثبات، بل ما أثبتته هؤلاء نفاه الآخرون، وما نفاه هؤلاء أثبتته الآخرون، فصاروا في أمر مريج متهافت مختل الأصول والفروع. هذا من جهة ميزان هذه القضية الجائرة في عقول قائلها.

وأما وزنها في الشرائع الدّينية والعقول الصحيحة، فهي أرذل وأخس من أن يقام لها وزن، وإنّما هي أقوال صدرت من سفهاء الأحلام، ضعفاء العقول، أرادوا بها التمويه على الأغرار [الذين لا قلب لهم] يستفتونه ولا ألباب صحيحة يزنون بها الأمور والقضايا، وإنّما الموازين التي لا يقدر فيها أحد من العقلاء فتلك الأصول التي أشرنا لها وما أشبهها، فهي التي من قالها صدق قوله، ومن حكم بها عدل حكمه، ومن استقام عليها هدي

إلى صراط مستقيم، وهي الأصول التي لا يمكن نقضها وتجري مع الزمان والأحوال لا تتغير؛ لأنها حقائق ثابتة، صالحة للخليقة، موضوعة لنفعهم.

أمَّا المسلمون فليس عندهم أدنى ريب بأنَّ دينهم هو الحقُّ الذي لا تعرف الحقائق إلَّا به، وهو الدِّين الذي رسم للخلق حقائق الأشياء ودلَّهم عليها، وأرشدهم إلى منافعها، ولا يستريبون أنَّ جميع أصول دينهم وفروعه وظاهره وباطنه إذا وُزنت بتلك الموازين الصَّحيحة ظهر نورها وجلالها وكمالها ووجوب تقديمها على كلِّ شيء.

وأما المنحرفون عن الدِّين فربَّما يصير عندهم في هذا المقام مغالطات، ويدَّعون دعوتهم مجردة عن البرهان، أنَّ مذاهبهم هي الموافقة لتلك الأصول، فعند ذلك يقال: ﴿هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. وبينوا الطريق التي يعرف بها ما ادَّعيتهم، ونحن نعلم علمًا مبنياً على البراهين والحقائق أنَّه ليس لهم طريق صحيح إلى تحقيق كلِّ قول نابذوا به الدِّين.

ثم نقول على طريق التنزُّل في مقام المناظرة: إنَّ الدَّعاوى إذا تعارضت والأقوال إذا تناقضت فعندنا حكمان عدلان: الدِّين الإسلامي، والعقل الصَّحيح.

أمَّا الأوَّل: فإنَّ كان المجادل بالباطل يدَّعي أنَّه مسلم فإنَّه يقال له: المسلم بإجماع المسلمين، لا يصير مسلمًا حتى يقدِّم ما جاء به الرِّسول من كتاب الله وسنة رسوله على ما قاله النَّاسُ.

فعلينا أن نتبع ما جاء في الكتاب والسنة، وما أشكل عليك - هل هو موافق أو معارض؟ - وضحنا لك من أدلة الشريعة ما يوجب لك الرضوخ والانقياد التام، وربها كان فهمك قاصراً عن دلالات النصوص فبيّن له دخول جميع المنافع والمصالح في نصوص الشرع، فإن انقاد لذلك فهو مسلم، ويصير طريق العقل مؤيداً لطريق الدين والعقل.

أما الدين: فإنه يُبيّن له الأدلة والبراهين العظيمة التي لا تقاوم ولا تصادم على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى الوحي الذي جاء به من عند الله، وهي أدلة في أعلى ما يكون من القوة والوضوح والكثرة، وآيات نبوته صلى الله عليه وسلم وبراهينها متنوعة، أخلاقه العظيمة التي أقسم الله بها بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، بحيث إذا وضح بعضها عرف أنه لا كان ولا يكون أحد من عظماء الرجال يدانيه في الكمال والفضل والخصال الحميدة التي يستحيل معها أن يكون متقوِّلاً، بل تدلُّ على أنه أصدق الخلق وأبرُّهم وأتمهم في كلِّ فضل وكمال، وما أمر به ونهى عنه وشرعه فإنه محكم منتظم، لا يأمر إلا بكلِّ معروف شرعاً وعقلاً، ولا ينهى إلا عن كلِّ منكر شرعاً وعقلاً، لا تجد في أحكامه اختلالاً ولا سفهاً وعبثاً ومنافاة للحكمة.

والقرآن العظيم الذي جاء به من عند الله فيه تبيان كلِّ شيء وهدى ورحمة، وفيه من العلوم والحقائق العظيمة ما لا يمكن أن يأتي عليه الوصف، لا يمكن أن يأتي علم صحيح ينقض ما جاء به بوجه من الوجوه، ﴿لَا يَأْتِيهِ

الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿ [فصلت: ٤٢]، فيه علوم الأولين والآخرين.

فمجرد نظر المنصف إلى ما جَبَلَ اللهُ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه من الأخلاق، وإلى أحكام دينه وكماله، وإلى عظمة القرآن وما احتوى عليه من المعجزات يضطره إلى تصديقه وإلى الخضوع لدينه وشرعه.

وإذا علم أنه رسول الله، وأنه الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى؛ تعين قبول ما جاء به وأن يكون هو الأصل الذي تعرض عليه الأقوال والمذاهب، فما وافقه فهو الحق، وما خالفه فهو الباطل؛ لأنه إذا علم أنه رسول الله حقاً، كان ما جاء به حقاً لا يمكن أن يعارض الحق، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَلُ﴾ [يونس: ٣٢].

فإن أبا المناظر الانقياد إلى شيء مما تقدّم، فعلى وجه التنزل في المناظرة الدال على غاية الإنصاف وإقناع الخصم، فهلم إلى التّحاكم إلى العقول الحرة المعروفة بالاعتدال، التي لم تتلوّث بالتعصّبات ولا بالقُصود الفاسدة والأغراض السيئة، التي ليس لها قصد إلا طلب الحقيقة والتّسليم للحقائق.

ولا يستريب من وقف على أصول الدّين وتعاليمه العالية والأخلاق السّامية وآدابه الرّفيعة، أنه هو الذي يكفل سعادة الدّنيا الحقيقية التي تعدّ سعادة، كما كان كفيلاً بسعادة الآخرة، ولا يعرف ذلك حقّ المعرفة إلا من تتبع الحقائق الدّينية وما تسمو إليه من رُقِيّ القلوب والأرواح والأخلاق،

وما يُعين على ذلك من المادة المائيّة والصنّاعية والسّياسية، وما يقوّي ذلك من الأمور المعنوية.

وبذلك يعرف معرفة على وجه البصيرة التي لا تردد فيها ولا ريب، أنّه يتعيّن على الخلق اتّباع ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والسنة عقلاً، كما تعيّن ذلك شرعاً، وتقدّمت الإشارة إلى بعض ما دلّ على ذلك من النصوص.

وإنّما قلنا ذلك وتنزّلنا هذا التنزّل الذي لا يبقى لمبطله شبهة؛ لأنّه في هذه الأوقات طمّ الإلحاد، وفشت دعايته بين المسلمين، وصار يدعو إليه الأجنب، ويدعو إليه من تسمى بالدين إما نفاقاً وخداعاً، وإمّا أن يكون صنيعه لغيره وأجيراً، وإمّا أن يكون ليس له بصيرة، يسمع النّاس يقولون شيئاً فقاله، وهذا كثير في أهل الصّحف، الذين لا بصيرة لهم في الدين ولا يبالون بسقوط صُحفهم عن الاعتبار الدّيني بل والأدبي.

ومن دعا بالطريقة التي شرحناها لم يلقّ لدعوته معارضة أصلاً، اللّهمّ إلا لمن عُرفوا بالمكابرات وجحد الحقائق المغالطات التي لا تسمن ولا تغني ولا تفيد شيئاً.

ولنذكر صورة مناظرة جرت بين رجلين كانا رفيقين، وكانا مسلمين يدينان بالدين الحقّ علماً وعملاً، فغاب أحدهما عن صاحبه مدّة، ثم التقيا، فإذا هذا الغائب قد تغيّرت أحواله وأخلاقه، فسأله صاحبه عن ذلك، فإذا هو قد تغلّبت عليه دعاية الملحدّين الذين يدعون لنبد الدين ورفض ما

جاء به سيد المرسلين، فحاوله صاحبه وقلبه لعلّه يرجع عن هذا الانقلاب الغريب، فعرف أنّ هذه علّةٌ ومرضٌ تفتقر إلى استئصال الداء وإنزال الدّواء على الدّاء، وأنّ ذلك متوقّف على معرفة الأسباب التي حولته وإلى تمحيصها وتخليصها، وتوضيح مرتبتها ومقابلتها بما يصادّها ويقمعها.

فقال له مستكشفاً عن الحامل له على ذلك: ما هي يا أخي الأسباب التي حملتك على ما أرى، وما الذي دعاك إلى نبذ ما كنت عليه، فإن كان خيراً كنت أنا وأنت فيه شريكين، وإلا كان غير ذلك، فأعرف من عقلك وأدبك أنّك لا ترضى أن تقيم على ما يضرُّك ويثمر لك الثمرات الرديئة؟.

فقال له: لا أخفيك العلم أنّي قد رأيت حالة المسلمين حالة لا يرضاها ذوو الهمم العليّة، رأيتهم في ذلٍّ وخمولٍ، وأمورهم مدبرة، وأحوالهم سيئة، ورأيت في الجانب الآخر هؤلاء الأجانب قد ترقّوا في هذه الحياة، وتفنّوا في الفنون والمخترعات العجيبة المدهشة، والصناعات المتفوّقة، فرأيتهم قد دانت لهم الأمم، وخضعت لهم الرّقاب، وصاروا يتحكّمون في الأمم الضّعيفة بما شاءوا، ويعدّوهم كالعبيد والأجراء وأقلّ من ذلك، فرأيت منهم العزّ الذي بهرني، والتفنّن الذي أدهشني، فقلت في نفسي: لولا أنّ هؤلاء هم القوم، وأنّهم على الحق، والمسلمون على الباطل، ما كانوا على هذا الوصف الذي ذكرت لك، فرأيت أنّ سلوكي سبيلهم واقتدائي بهم خيرٌ لي وأحمد عاقبة. فهذا الذي صيرني إلى ما رأيت.

فقال له صاحبه حين أبدى له ما كان مستورا: إذا كان هذا هو السبب

الذي حولك إلى ما أرى، فهذا يا أخي ليس من الأسباب التي يبني عليها العقلاء وأولو الألباب عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم؛ أمّا تأخر المسلمين فيما ذكرت فليس ذلك من دينهم، وقد علمت وتيقنت أنّ دين الإسلام يدعو إلى الصّلاح والإصلاح والاستعداد بالقوّة المعنوية والقوّة الماديّة من كلّ وجه إلى قوّة المسلمين ومقاومتهم لأعدائهم، وإلى السّلامة من كلّ أضرارهم، وهو لا تزال تعاليمه وإرشاداته قائمة لدينا تنادي أهلها: هلمّوا إلى جميع الأسباب النافعة التي تعلّكم وترقيكم في دينكم ودنياكم، أفبتفريط أهل الدّين تحتجّ على الدّين؟! أليس هذا التفريط منهم يوجب على أهل البصائر منهم أن يكون خيرهم ونشاطهم وجهادهم الأكبر متضاعفاً، لينالوا المقامات الشّاحخة ويتعدوا من الهوّة العميقة؟ أليس القيام التّام والجهاد من أفرض الفروض وألزم اللّوازم في هذه الحال؟، فالجهاد في حال قوة المسلمين وكثرة المشاركين، له فضل عظيم يفوق سائر العبادات، فكيف إذا كانوا في هذه الحال التي وصفت؟ فإنّ الجهاد لا يمكن تعبير المعبرين عن فضائله ومناقبه، فإنّه في هذه الحال يكون الجهاد قسمين:

● قسم منه فيه تقويم المسلمين وإيقاظ همهم وبعث عزائمهم وتعليمهم العلوم النّافعة وتهذيبهم بالأخلاق الرّاقية، ولعل هذا أشقّ النّوعين وأفضلهما.

● وقسم فيه مقاومة الأعداء وإعداد العُدَد القولية والفعلية والسّياسية والدّاخلية والخارجيّة لمقاومتهم ومنزلتهم في ميادين الحياة.

أفحين صار الأمر على هذا الوصف الذي ذكرت، وصار الموقف حرجاً

تتخلى عن إخوانك المسلمين، وتتخلف مع الجبناء والمخلفين؟! فكيف مع ذلك تنضم إلى حزب المحاربين؟ لا تكن يا أخي أرذل ممن قيل فيهم: ﴿تَعَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اُدْفَعُوا﴾ [آل عمران: ١٦٧]، قاتلوا لأجل الدين، أو ادفعوا لأجل الرابطة القومية، فأعيدك يا أخي من هذه الحالة التي لا يرضاها أهل الديانات ولا أهل النجيدات والمروءات، فهل ترضى أن تشارك قومك في حال عزهم وقوة عددهم وعديدهم، وتفارقهم في حال ذلهم ومصائبهم، وتخذلهم في حالة اشتدت فيها الضرورة إلى نصره الأولياء وجمع عدوان الأعداء، فهل رأيت يا أخي قوماً خيراً من قومك، وديناً خيراً من دينك؟.

فقال ذلك المنقلب المنصوح: الأمر كما ذكرت لك، ونفسي تتوق إلى أولئك الأقسام الذين أتقنوا الفنون والصناعات، وألغوا السياسات والحضارات، وترقوا في هذه الحياة.

فقال له صاحبه وهو يجاوره: أرفضت ديناً قيماً كامل القواعد، نير البرهان، يدعو إلى الخيرات، ويحث على طرق السعادة والفلاح، ويقول لأهله: هلموا إلى الفلاح والنجاح، دين مبني على الحضارات الراقية الصحيحة، التي بُنيت على العدل والتوحيد، وأسست على الرحمة والحكمة والشفقة وأداء الحقوق، وشملت بظللها الظليل وخيرها الطويل وإحسانها الشامل وبهائها الكامل ما بين المشارق والمغرب، وأقر بذلك الموافق والمخالف.

أتركها راغباً في حضارات ومدنيتات مبنية على الكفر والإلحاد، مؤسّسة

على الطَّمع والجشع وظلم العباد، فاقدة لروح الإيمان ورحمته، حضارة
ظاهرها مزخرف، وباطنها خراب، وتخالها تعميراً للوجود وهي في الحقيقة
مآها الهلاك والتدمير، ألم تر آثارها في هذه الأوقات، وما جلبته للخلق من
الهلاك والفناء والآفات؟.

فهل سمع الخلق منذ أوجدهم الله لهذه المجازر البشرية نظيراً أو مثيلاً؟!
فهل أغنت عنهم مدنيّتهم وحضارتهم من عذاب الله من شيء لِمَا
جاء أمر ربِّك، وما زادتهم غير تتيب؟! فلا يخدعَنَّك يا أخي ما ترى من
المناظر والزَّخرفة والأقوال المموَّهة والدَّعاوى الطَّويلة العريضة، فانظر
إلى بواطن الأشياء ولا تغرَّنك الظواهر، وتأمل النَّتائج الوخيمة، فهل
أسعدتهم هذه الحضارة في دنياهم التي لاحياة لهم يرجون غيرها؟! ألم
ترهم ينتقلون من شرٍّ إلى شرور، وأنَّهم لا يسكنون في وقت إلا وهم إلى
شرور فظيعة يتحفزون؟!!

ثم هَبْ أَنَّهُمْ مُتَّعُوا في حياتهم ومتَّعوا بالعزِّ والرِّياسات ومظاهر الحياة،
فهل إذا انحزت إليهم وواليتهم يشركونك في حياتهم ويجعلونك كأنفسهم؟
كلَّا والله؛ إنَّهم إذا رضوا عنك جعلوك من أحسَّ خدَّامهم وأقدر أجرائهم،
وآية ذلك أنَّك في ليلك ونهارك تكدح في خدمتهم، وتكلم وتجادل وتخاصم
على حسابهم، ولم نرهم رفعوك حتى ساووا فيك أدنى قومهم وبني جنسهم،
فالله الله يا أخي في دينك، الله الله في مروءتك وأخلاقك وأدبك، والله الله في
بقية رمقك، فالانضمام إلى هؤلاء والله هو الهلاك .

فلما سمع هذا الكلام، وتأمل جميع الطُّرق والوسائل التي تُنال بها الأغراض الصَّحيحة من أولئك الأقوام، فإذا هي مسدودة، عرف أنَّه في محتته هذه من جملة المغرورين، وأنَّ الواجب عليه متابعة النَّاصحين، وأنَّ الرَّجوع إلى الحق الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة خير من التَّماذي على الباطل الذي يحتوي على الضَّرر المبين.

فقال لصاحبه : كيف لي بالرجوع وأنِّي لي، وقد أظهرت الانحياز إلى أولئك [و] التُّزوع .؟

فقال له صاحبه: ألم تعلم أنَّ من أكبر فضائل الإنسان أن يتَّبَع الحق الذي تبيَّن له، ويدع ما هو فيه من الباطل، وأنَّ الخطأ والزَّلل قلَّما يسلم منه بشر، ولكن الموفِّق الذي إذا وقع في المهالك طلب الوسيلة والطَّريقة إلى كلِّ سبب يخلِّصه منها، وأنَّ من نعمة الله على العبد أن يقيِّض له النَّاصحين الذين يرشدونه إلى الخير ويأمرونه بالمعروف، وينهونه عن المنكر، ويسعون في سعادته وفلاحه، ثمَّ من تمام هذه النِّعم أن يوفِّق لطاعتهم، ولا يتشبه بمن قال الله فيهم: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

واعلم أنَّه ربَّما كان الإنسان إذا ذاق مذهب المنحرفين، وشاهد ما فيه من الغيِّ والضَّلال، ثم تراجع إلى الحقِّ الذي هو حبيب القلوب، ربَّما كان أعظم لوقعه، وأكبر لنفعه، فارجع إلى الحق ثابتاً، وثق بوعد الله ﴿إِن

اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

فقال: الحمد لله الذي أنقذنا بلطفه وحسن عنايته من الهلاك والشقاء، ومنّ علينا بالسعادة والهدى، فنسأل الله أن يتم نعمته علينا بالثبات على دينه، إنه جواد كريم.

فقال النَّاصِح لِأَخِيهِ لِمَا رَأَى مَا يَسُرُّهُ مِنْ رَجُوعِهِ إِلَى الْحَقِّ: وَأَزِيدُكَ يَا أَخِي بَيَانًا أَنَّ هَذِهِ الْمَظَاهِرَ الَّتِي نَرَاهَا مِنَ الْكُفَّارِ قَدْ نَبَّهَنَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ أَنْ لَا نَغْتَرَّ بِهَا، فَلَوْلَا أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ عَلِمَ أَنَّهَا مِنْ طَرُقِ الْغُرُورِ وَوَسَائِلِ الْخُدَاعِ لِمَا نَبَّهَنَا عَلَيْهَا وَأَرْشَدَنَا وَحَدَّرَنَا أَنْ نَغْتَرَّ بِهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧]، ﴿فَلَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤] الآيات، [فَيَبِّينُ لَنَا] أَنَّ هَذَا الْإِغْتِرَارَ مَصِيدَةٌ لِلْجَاهِلِينَ، وَأَنَّ اللَّهَ أَرَى عِبَادَهُ مِنْ وَقَائِعِهِ وَأَيَاتِهِ فِي الْأُمَمِ الظَّالِمَةِ مَا حَصَلَتْ بِهِ الْعِبْرَةُ، وَأَنَّ مِنْ بَنِي أَمْرِهِ وَمَسَالِكِهِ عَلَى الْإِغْتِرَارِ بِمَا مَتَّعُوا بِهِ فَإِنَّهُ جَاهِلٌ، أَحْمَقٌ، عَقْلُهُ قَاصِرٌ، وَنَظْرُهُ قَاصِرٌ، وَأَيْضًا فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أَنَّهُ يَسْتَدْرِجُهُمْ فِيمَا أَعْطَاهُمْ، فَيَغْتَرُّونَ وَيُغْتَرُّ بِهُمْ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ مِنْهُمْ وَمِمَّنْ تَعَشَّقُ أَحْوَالَهُمْ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَمْهَلُهُمْ ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

ولسنا ننكر أن الله أعطاهم أسبابًا عظيمة تدرك بها المطالب، لكن هذه الأسباب إن لم تبين على الحق والدين الحق، صار ضررها أكثر من نفعها، هذا بالنظر إلى الحياة الدنيا، وأمّا في الآخرة؛ فليس لهم في الآخرة من نصيب ولا خلاق.

الصَّادِقُونَ ﴿[الحديد: ١٩]﴾، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٨٢]، في مواضع كثيرة يرتب عليها خيرات الدنيا والآخرة، ويرتب على عدم الإيمان جميع الشرور الدنيوية والأخروية، ويخبر أن الأعمال والتعبّدات كلّها ناشئة عن الإيمان، فمن امتلأ قلبه من الإيمان بالله كانت قوة عبوديته لله بحسب ذلك الإيمان الذي في قلبه، وكذلك أعمال الأسباب النافعة التي تنفع الأفراد والشعوب، لا يمكن العبد أن يقوم بها على وجه الكمال والصّدق والإخلاص والبناء على الأصول النافعة إلا بالإيمان.

فالإيمان أصل الخير الدّيني والدنيوي، وبه توزن الأمور؛ صالحها وطالحها.

وإذا أردت تفصيل هذه الجمل العظيمة والتمثيل لها على وجه يعترف به أهل العقول والألباب، فالأمور التي يحصل بها الرّقي الحقيقي والسّعادة والفلاح؛ الاعتقادات الصحيحة، والأخلاق المزكية للقلوب المطهرة للأرواح، الباعثة للهمم والعزائم إلى كلّ خير، والأعمال الصّالحة النافعة في الدّين والدّنيا.

وهذه الأمور متلازمة، لا يتم بعضها إلا ببعض، وبتمامها السّعادة والفلاح، فإذا اعتقد العبد ما أخبرت به الرّسل عن الله تعالى، وأنّ له الكمال المطلق من جميع الوجوه بكلّ وجه واعتبار، وأنّ الأشياء وجودها وبقاؤها وكما لها بالله تعالى، ومنه تستمد كلّ شيء، فعلم أنّ الله هو الخالق

وحده، وما سواه مخلوق، وهو الرَّازِق المحسن وما سواه مرزوق مضطر إلى إحسان ربه وكرمه من كل وجه، وهو المدبر المصرف للعالم العلوي والسفلي بحكمته وعلمه وعنايته وحسن تدبيره، وهو بكل شيء عليم، يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يسمع الأصوات ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠].

ويرى جميع ما حواه العالم العلوي والسفلي، لا يخفى على نظره أدق المخلوقات في أخفى الأمكنة، وهو مع ذلك واسع الرحمة والجلود والكرم والبر والامتنان، يفيض الإحسان على مخلوقاته آناء الليل والنهار، يده بالخير سحاء الليل والنهار، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها وموصل إليها من بره وإحسانه جميع ما تحتاجه في وجودها وبقائها وتما أحوالها، وهو مع ذلك قد أمر المخلوقات أن تنيب إليه وتسأله حاجتها، وتفزع إليه في جميع مهماتها وملماتها، فيجيب الداعين ويكشف كربات المكروبين، ويزيل الضر عن المضطرين، ويسوق الألفاف وأصناف البر لعباده المنيين.

فمتى اعتقدت القلوب هذه الاعتقادات الصحيحة في ربها وإلهها، فلا بد أن تنيب إليه بالخوف والرجاء والمحبة، وتمتلىء من تعظيمه والإيمان به، وتطلب السعي في كل أمر يرضيه، وتتجنب كل أمر يسخطه، فيضطرها هذا الأمر إلى الإخلاص الذي هو روح الأعمال، فالمخلص لله تنبني أعماله الظاهرة والباطنة على أن يكون الداعي لها والباعث عليها هو الإيمان بالله، وغايتها الذي تنتهي إليه وتسعى إليه طلب رضاه، والتنعم بثوابه

وخيراته، وبذلك يزول عن القلوب جميع الأخلاق الرذيلة من الرياء والنفاق والعجب ومساوىء الأخلاق، وتتحلّى بالأخلاق الجميلة، من الحب والإخلاص والطّمع في فضل الله، والخوف من عقابه، والصّدق الكامل في طلب مرضاته، والإنابة التّامة إلى ربّها في رغباتها ورهباتها؛ لأنّها تعلم أنّه لا ملجأ ولا منجى ولا مولى ولا نصير إلا ربّها ومليكتها، وتكون محبّتها للخير الذي يقربها إلى مولاها مقدّمة إلى كلّ محبة، وترى أنّ قوتها وغذاءها وكما لها بهذه الإنابة وهذا الافتقار، وتعطف بهذا التّعبّد على عباد الله، فتحبّ للمسلمين ما تحبّ لنفسها من الخير، وتسعى لذلك بحسب مقدورها، ثم إذا أصابتها النّكبات وحلّت بها المصيبات فزعت إلى ربّها، ليكشف ضرّها، ويثيبها على ما قدر عليها، وتطمع غاية الطّمع في فضل ربّها ورجاء رحمته وطلب ثوابه.

وبهذا المعنى الذي تتّصف به وهذه العقيدة النّافعة، تهون عليها المصيبات، وتخفّ عنه المكروهات، لما تعلمه من حكمة الله، واستناد الأمور إلى تدبيره وقدرته، ولما ترجّوه من تفرّج كُرّها؛ لأنّها تعلم أنّه لا يفرّج الكُربات ولا يُزيل الشّدّات إلّا هو، ولما ترجّوه من الثّواب الذي ربّته على المكاره والصّبر عليها.

وأما من لم يحصل له هذا الإيمان، فإنّه عند المصائب والملمات يجري له من الآلام القلبية والفظائع الرّوحية والزّلازل العظيمة ما لا يمكن التّعبير عنه، وربّما أنّ بعض هؤلاء تصل به الحال إلى إتلاف نفسه أو إلى زوال

عقله، لعدم ما يستند إليه ويرجوه، وكما أن المؤمن الحقيقي يتلقى المكاره والمصيبات بالصبر والقوة والطمأنينة للأسباب التي أشرنا إليها، فإنه يتلقى أوامر ربه بالقوة والعزيمة الصادقة، ويؤدي حقوقه وحقوق خلقه بالكمال والتمام بحسب استطاعته، ومع ذلك فإنه يعلم أنه لا يمكنه أن تتم له العبودية وأداء الحقوق الواجبة والمستحبة والمصالح الكلية والجزئية إلا بالسعي بالأسباب الدنيوية النافعة، وبالقيام بالقوة المعنوية والمادية، فانبعث همته لداعي الإيمان وداعي العقل وداعي الفطرة إلى ذلك، وأبدى ما يقدر عليه في تحصيل ذلك، وعلم أن المقاصد لا تتم إلا بالوسائل، وأن الوسائل التي تُعين على المصالح مما أمر الله به ومما رتب عليه الثواب وعلى الاستهانة به العقاب.

فدخل في هذا جميع الأسباب الموجودة، والتي ستحدث بعد ذلك، فعلم بذلك أن الإيمان المذكور هو الباعث على تحصيل خير الدنيا والآخرة، وأن من لا يرجو ثواباً من الله ولا يخشى منه عقاباً، ولا له إيمان يستند إليه أنه ضعيف الهممة، ضعيف العزم النافع، وإنما تنبعث عزماته في تحصيل لذاته البهيمية وشهواته السفلية وطمعه الدنيء، فربما كانت قوته في هذه الأمور وأسبابه المادية في تحصيلها فوق ما يتصوره المتصور، ويعبر عنه المتكلم، ولكن لا إيمان يستند إليه ولا غاية حميدة يرتجئها، ولا حياة أبدية يعمل لها.

فمن كانت هذه حاله لم ينل في هذه الحياة طيبها ولا نجح في تحصيل سعادتها، بقطع النظر عن الحياة الأخرى، فإنه ليس له في الآخرة من خلاق ولا نصيب.

وبهذا يتضح لنا ما عليه المعرضون الآن عن الإيمان بالله، وأن هذه المناظر وما مُتَّعوا به من الحياة ما هي إلا لذات مؤقتة تحتها ما شئت من الآلام والأكدار، وأنه لا غاية لها، وأن المؤمنين بالله مهما تنقلت بهم الأحوال وتطوّرت بهم الأمور فإنهم خير من هؤلاء وأحسن عاقبة، فلو وُفق المؤمنون للقيام الكامل بالإيمان على الوصف الذي ذكرنا، لحازوا الحياة الطيبة في هذه الدنيا، والحياة التي أطيب منها في دار القرار.

وأزيدك أيضًا أن الإيمان الذي وصفنا هو الذي يحثُّ صاحبه على كلِّ خلقٍ جميل، ويزجره عن كلِّ خلقٍ رذيل، فالإيمان يدعو صاحبه إلى الصدق في الأقوال والصدق في معاملته الخلق، فمن لم يكن مؤمنًا هذا الإيمان لم تكن مطمئنًا من أقواله ولا من معاملاته، وربّما راعاك في شيء وكذبك في أشياء، وهو الذي يحثُّ على النصح لله ورسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم.

فإيمان العبد يوجب أن يبذل في هذه الأمور كلَّ ما يستطيعه من النصح ويقدر عليه، ومن لم يكن كذلك فأنت غير آمن من غشه إن نصحك فيما يُظهر ويبيّن، فما الذي يمنعه أن يغشك فيما يظنُّ أنه لا يبيّن، ليس معه من الإيمان ما يعصمه من هذا الخلق الرذيل؟.

الإيمان المذكور يحمل صاحبه على الصبر والقوّة والشجاعة والإقدام في المواضع التي يحجم عنها ضعفاء النفوس الذين لا إيمان معهم، فالمؤمن بقوّة إيمانه وتوكّله على الله ورجائه لثوابه وعلمه أن الثواب الدنيوي والدنيوي

والأخروي يكون بحسب ما قام به من واجبات الإيمان ومكملاته وما قام به من الجهاد، ويسهّل عليه القيام بالأعمال الشّاقة، ويهوّن عليه ما يلقي من الأهوال والمعارضات، ولا يأخذهم في ذلك لوم اللّائمين، وقدح القادحين، ولا يصعب عليه ما أصابه من جرّاء ذلك من المصائب، وكلّمًا قوي الإيمان كان قيامه بهذه الأمور أعظم وأتمّ.

أمّا من لم يكن معه ذلك الإيمان الصّحيح، فمن أين له الثّبات على الصّبر وعلى المقاومات الشّاقة؟! نعم قد يكون له صبر [بعض] الأوقات في تحصيل أغراضه السّفلية، وشهواته النّفسية، وقد يكون عنده من الشّجاعة والقوّة في تحصيل ذلك [...]. ولكن حاله ما أرذلها وأخطرها وأقلّها بقاءً، فإنّ الوسائل تابعة لمقاصدها، فأين من كانت مقاصده أجلّ المقاصد، نصر الدّين وإعانة المؤمنين وقمع أعداء الدّين، [...] ومقاومة الباطل وتحصيل الفلاح الأبدي والسّعادة السّرمدية، والقيام بحقوق [الله..] كليّها وجزئها؟ أين هذا ممّن نهايته إدراك رياسة مؤقّته ولذات [فانية.. مشوبة بـ] الأكدار، وكان عاقبتها الهلاك والبوار؟ فوالله إنّ بين حالها لكما بين [المشارك والمغارب].

الإيمان المذكور يحمل صاحبه على العدل، وينهاه عن الظّلم، فإنّه يعلم أنّ إيمانه لا يتحقّق [...] إلّا بذلك.

وأما من عدّم الإيمان فأين العدل الذي يتأسّس عليه؟ فما تأسّس العدل إلا [على الإيمان بالله واتباع الرسل] والكتب السماوية، وإلّا فطبيعة

الإنسان الظُّلم والفوضوية لا في جماعاتهم ولا [في أفرادهم، وأمّا ما] لم يتأسس على العدل فليس من الدِّين، وكيف تأمن من لا إيمان له أن يظلمك في دمك ومالك [فإنّ] النفوس مجبولة على محبة الأثرة إن لم يكن معها إيمانٌ يردعها [...] وعلم صحيح وعدل يحجزها.

الإيمان الموصوف بما ذكرنا كما أنّه يدعو أهله [إلى الأخلاق الحميدة وينهاهم] عن الأخلاق الرذيلة، ويحثهم على الآداب الحسنة، فكذلك يحثهم [على ما ينبغي أن يكونوا بمقتضى الأخوة] الدّينية والحقيقة الإسلامية عليه من فنون الصناعات وأنواع [المخترعات الحديثة ...] والاستعداد للأعداء بجميع الوسائل النّافعة على حسب الحال المقتضية [لذلك، ويجذرهم من الركون إلى الخمول] وإلى الكسل والضعف، وأن يكونوا كلاً على غيرهم، كذلك يحثهم على [تحقيق الأخوة الإيمانية وفعل] ما تقتضيه المصلحة، وعلى جمع كلمة المسلمين، واتّفاقهم على [الحق والهدى ...]، فالمؤمنون بالمعنى الحقيقي يقومون بهذه الأمور لداعي الدّين [... والمصلحة]، إذا قام غيرهم فيها للأمر الثّاني فقط، ولكنه لمصلحة دنيوية [حسب القدرة في نيلها، يخشون] أن يسبقهم هؤلاء القوم في تحصيل الفنون العصريّة التي فيها [الغلبة والنصر] على الأعداء، وفيها المقاومة والاقْتدار على المهاجمة، وعند المسلمين من الدّواعي [الإيمانية..] وطلب المصلحة ما ليس عند غيرهم، واللّوم موجه إلى المؤمنين، فليس لهم عذر عند الله ولا عند خلقه ولا تعذرهم نفوسهم الأبيّة ولا أخلاقهم وتعاليمهم الدّينية الإيمانية.

إذا كان الإيمان الحقيقي يدعو إلى هذه الفضائل ويزجر عن جميع الرذائل، أتضح أنه الطريق الوحيد والصراط الأقوم للسعادة الحقيقية والرقي الحقيقي، وأن ما نراه في بعض الأمم الفاقدة للإيمان ليس إلا كالسراب حتى إذا جاءه المنصف وحقق أمره لم يجده شيئاً، حتى قال بعض منصفهم في هذا المقام: (إنَّ النَّاسَ كَانُوا وَلَا يَزَالُونَ يَطْلُبُونَ الْحَقَّ، وَلَمْ يَكُونُوا فِي زَمَانٍ أَبْعَدَ عَنْهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ)، يريد بذلك قومه، فما هم عليه من مظاهر السعادة الدنيوية فإنَّ حشوه الآلام الشاغلة لقلوبهم أجمعين ما يرحمهم لأجله المقصرون عنهم، ويؤهد الراغبين في مثلها لهم، ويصدِّهم عن أتباعهم، والسبب بعدهم عن الإيمان والحق، ونزوع أنفسهم إلى الباطل، وهرولتهم خلف دواعي الشهوة.

والسبب الأصلي في ذلك كله خلُّ نفوسهم من الركون إلى الإله الواحد، خالق الجميع ورازق الأحياء، ومقدِّر الأسباب لمكاسبهم، فهذه الأحوال والظواهر التي لم تُبنَ على الإيمان هل يقول صحيح العقل: إنها حياة سعيدة والقلوب قلقة والنفوس محترقة! وإنما الرَّاحة والحياة الطيبة راحة المؤمنين الذين اكتسبوا راحة الضمائر، وطمأنينة السرائر، والرِّضا الحقيقي مع السعي الجميل في طلب المنافع والمكاسب، فالؤمن حيث تجده تجد هذا الوصف منطبقاً عليه، فهو سعيدٌ وإن كان بين الأشقياء، حكيم وإن وُجد بين السفهاء.

وأما من أخذ اسم الإيمان رسماً، ولم يتحقق به عقداً ولا خلقاً ولا أدباً فلم تُضمن له الحياة الطيبة.

القاعدة الرابعة

**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
والتواصي بالحق والتواصي بالصبر**

كم في كتاب الله وسنة رسوله من الأمر بهذا الأصل العظيم، والقاعدة العامة الجامعة لكل خير.

فإن المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً.

والمنكر: اسم جامع لكل ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً.

والحق: هو العلوم النافعة والأعمال الصالحة.

فيدخل في هذا تعلم جميع العلوم النافعة، وتعليمها، وكما يدخل في ذلك تعليم المستعدين لطلب العلم، فإنه يدخل فيه تعليم الناس ووعظهم في المساجد والمجامع - الصغار والكبار - وفي الحديث مع الأصحاب وغيرهم.

وكذلك يتعين أن يكون هيئات وجمعيات من المسلمين يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ومن أكبر المعروف أن يسعوا في جمع كلمة المسلمين، واتفاقهم على مصالحهم الكلية وإزالة ما يقع بين المسلمين من التعادي والتباغض والتنافر

التي هي من أكبر الأسباب الممكنة للأعداء، وأن يكون من المسلمين طائفة كافية مستعدة للجهاد بالإقبال على تعلُّم العلوم والفنون العصرية والصناعات والأسلحة التي لا يقوم الجهاد إلا بها، فإنَّ الجهاد في سبيل الله من أكبر ما يدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد نوعان:

جهاد واجتهاد في تقوية المسلمين بالروح الإيمانية والقوة المعنوية والشجاعة الدينية.

وجهاد الأعداء في مدافعهم ومهاجمتهم، وأخذ الاحتياطات الكافية لوقاية شرهم وضررهم.

ومعلوم أنَّ هذه الأمور تتوقَّف على الحدِّق والمهارة في الفنون العصرية النَّافعة، فيكون السَّعي فيها وفي تعلُّمها داخلًا في الجهاد وطريقًا عظيمًا من طُرُقهِ.

ومن ذلك أن يكون طائفة من المسلمين تتفَقَّد النَّاس وتُلمِّهم القيام بالفرائض الدينية، كالصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحجِّ وجميع حقوق الله وحقوق خلقه الواجبة، وتردعهم عن المنكرات الظَّاهرة والباطنة.

ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتَّواصي بالحقِّ أن يكون المسلمون في كلِّ أوقاتهم وأحوالهم متناصحين، يحثُّ بعضهم بعضًا على الحقِّ الذي هو العلم النَّافع والعمل الصَّالح والصَّبر على ذلك، فإنَّ الصَّبر هو الآلة والأساس الذي لا ثبوت للأمر إلاَّ به.

ومن ذلك السَّعيُّ في المشاريع الخيرية التي تنفع الأمة، وتحصيل الأموال لقيامها وتقويمها، كالمدارس العلميَّة في جميع فنون العلم النَّافع في الدِّين والدُّنيا، المعينة على الدِّين، سواء كان ذلك سعيًّا على طريق الإحسان المحض أو على طريق التَّجارة والكسب، فكثير من الأعمال الكبيرة التي تنفع النَّاس في دينهم ودُّنياهم لا تقوم إلَّا بالشَّركات الواسعة، فإذا كان النَّاس يسعون للمساهمة في الشَّركات التَّجارية المحضنة، فكيف يتأخرون عن الشَّركات الجامعة للأميرين: للمصلحة الدِّينية والمصلحة الدُّنيويَّة؟! بل نفس السَّعي فيها والعمل لها من أعظم ما يقرب إلى الله تعالى، وتعيينها يتوقَّف على المشاورة واتباع المصلحة الرَّاجحة.

ومن أجلِّ وأفضل ما يدخل في ذلك مجادلة المبطلين وإقامة الحُجج والبراهين على أعداء الدِّين من الكفَّار والملحدِّين، وقد يكون مقاومة الملحدِّين الَّذِينَ يتسمَّون باسم الإسلام ويدعون إلى نبذ أصوله ودعائمه أفضل من التَّصدِّي للمبارزين من الأجنبيِّ المعروفين بمبارزة الدِّين؛ فإنَّ هؤلاء شرُّهم أعظم، وضررهم أكبر، لا غترار كثير من النَّاس بانتسابهم إلى الإسلام، وهم في الحقيقة من أكبر أعدائه، وهؤلاء قد يكونون أُجْرَاء للأجنبيِّ، وقد يكونون مخدوعين، لكن من أوجب الواجبات تمييز أحوالهم وإنكار ما أدخلوه على الدِّين من الدَّعاية الباطلة.

وبما تلوناه عليك من التَّقريرات اليقينيَّة عن دين الإسلام يتَّضح عقلاً كما اتَّضح شرعاً بطلان ما زعمه بعض المتعصِّبين من دعاة النَّصارى

وأجرائهم أن دين الإسلام مانع من الرُّقِيِّ، وأن هذا الكلام والزعم الخبيث مكابرة بيّنة، وأن الرُّقِيَّ الحقيقي محالٌ وغير ممكن أن يتأسس إلا على قواعد الدِّين.

فالقواعد والأصول التي نبهنا عليها عن الدِّين لا يمكن أحدٌ أن ينكر أنّها السَّبب الأعظم والطَّرِيق الوحيد إلى الارتقاء في مدارج السَّعادة والفلاح، وأنه يتعدَّر النَّجاح بدونها، وأنَّ كلَّ رُقِيٍّ غيرها فإنَّه مبنيٌّ على شفا جرف هار، وكيف يحصل الرُّقِيُّ إذا لم ترتق القلوب والأرواح بمحبَّة الله والإنابة والافتقار إليه وقوة الإيمان والتوكُّل عليه؟! وكيف يحصل الرُّقِيُّ التَّامُّ ولم ترتق الأخلاق بالتَّحليِّ بالفضائل والتَّخليِّ عن جميع الرَّذائل؟! وكيف يتمُّ الرُّقِيُّ بغير الجهاد الشَّرعي الذي هو الجهاد على تبين الحقِّ والهدى وعلى قَبوله وعلى دفع عادية المعتدين؟!!

الجهاد الشَّرعي: هو الذي جمع بين القوة المعنوية بالإيمان الكامل بالله، والاعتماد عليه، والتَّوكل والاستعانة به، والعمل بجميع الأسباب التي لا يتمُّ الجهاد إلا بها، وجمع القوَّة المادية حيث حثَّ على الاستعداد بكلِّ ما استطاع من القوَّة العقلية والسِّياسية والرَّمي والرُّكوب وتعلُّم الصَّناعات والفنون التي تُعين على الجهاد وعلى أخذ الحذر من الأعداء بكلِّ وسيلة وطريق.

فيا ويح من زعم أن هذه التَّعاليم العظيمة العالية لا يحصل بها الرُّقِيُّ، وإنَّما يحصل بالقوَّة المادِّيَّة التي لا صلَّة لها بالدِّين المبنية على القساوة

والهمجية والوحشية والظلم ونبذ الدين، ولكن أكثر الناس تغرهم
المظاهر والصُّور وليس لهم ألبابٌ ينظرون بها إلى حقائق الأشياء وإلى
الأمور النافعة، التي نتائجها الخيرات والسعادة الأبدية.

القاعدة الخامسة

الدين الإسلامي هو الصّلاح المطلق ولا سبيل إلى صلاح البشر الصّالح الحقيقي إلا بالدين الإسلامي

قال تعالى في عدة آيات:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، ثم يرتب على ذلك خير الدنيا والآخرة، ويطلق الصّالحات، فكلُّ شيء ينطبق عليه الصّلاح فإنه داخلٌ في الصّالحات، ﴿ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَيَّبِطُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٨١]، ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٦]؛ أي الذين صلحت قلوبهم وأخلاقهم وأعمالهم، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

وهذا يقوله تعالى للمنافقين الذين يزعمون أن ما هم عليه من النفاق وترك الإيمان صلاحٌ، فأخبر تعالى أنه هو عين الفساد، فكلُّ من زعم أن الصّلاح في خلاف الدين الإسلامي فهو من هؤلاء المنافقين وعلى شاكلتهم، وفي القرآن آيات كثيرة فيها الحثُّ على الصّلاح والإصلاح والتّحذير عن الفساد والإفساد.

وهذا الأصل الكبير كما أنه ثابت شرعاً ودينًا فإنه ثابت في العقول

الصَّحِيحة والألباب المستقيمة، وذلك بمعرفة ما هو الصَّلاح وضدّه، أما الصَّلاح: فأن تكون الأمور كلها ظاهرها وباطنها دينيَّها وديويها معتدلةً كاملةً مكملةً حاصلًا لها من الأوصاف الصَّالحة والنُّعوت المصلحة ما يوصلها إلى الصَّلاح الحقيقي، وبذلك يتنفي عنها الفساد، أمَّا صلاح القلوب: فأن تكون عارفةً بالحقِّ معترفةً به منقادةً له، تابعةً له.

فأعظم الحقِّ على الإطلاق الذي يتعيَّن معرفته والانقياد له هو معرفة تفرُّد الرّبِّ بالكمال المطلق الذي لا يشاركه ولا يماثله فيه مخلوق بوجه من الوجوه، وأنّه المتفرِّد في عظمة صفاته، وتفرُّده في أفعاله وعطائه، ومنعه وخفضه ورفع، وتصريفه الأمور بحكمة وعناية، تتقاصر عقول العالمين عن بلوغ غايتها ونهاية دقَّتها.

ثم إذا عرفته هذه المعرفة الصَّحيحة المتلقَّاة عن كتاب الله وسنة رسول الله اعترفت وانقادت له محبةً وخوفًا ورجاءً وإنابةً إليه وقصدًا في جميع شؤونها الظاهرة والباطنة، وبهذه المعرفة والاعتراف والانقياد التَّام تنقاد إلى أداء حقوقه وحقوق عباده بانسراح وطمأنينة وإذعان وداعي الإيمان ورجاء الثَّواب.

أليس هذا هو الصَّلاح الحقيقي الذي لا يمكن صلاح الأحوال إلاّ به؟! فهل يمكن أن يصلح عبد لم يُفرد ربه بمعرفته ومحبته والإنابة إليه، ولم ينقد في ظاهره وباطنه إلى القيام بعبوديته وحقوق خلقه؟! فلو خلت القلوب من هذه المعاني الجليلة فهل يمكن أن تصلح؟! وهل يمكن أن تصلح

الحركات الظاهرة والباطنة؟ هذا ممتنع ومستحيل.

فالقلوب الخالية من الإيمان، المتجرّدة عن الانقياد والإذعان إليه حيث انقطعت عن الله، فلا بد أن تتبع شهواتها وأهواءها، وبذلك تفسد الأحوال كلّها.

وهذا برهان ظاهر نير على أنّ الصّلاح في الدّين والدّنيا منوط بالقيام بالدّين الإسلامي.

وأيضاً فإنّ النّاس مضطرون إلى الاجتماع، ومفتقرون إلى تبادل المصالح، ولا بدّ لبعضهم من بعضهم، وشؤون بعضهم متعلّقة ببعض، ولا يشك أحد من العقلاء أنّ مصالح البشر متعارضة ومطالبهم متباينة، والمصالح مختلفة، والأهوية غالبية، فكان هذا أقوى البراهين على اضطرار الخلق إلى دينٍ وشرع سماوي معصوم يحدّد لهم الحدود، ويشرّع لهم الشرائع، وينهج لهم طريق العدل والإنصاف، ويمكن بعضهم من الانتفاع ببعض بطمأنينة وحياة طيبة.

والشرع والدّين الإسلامي كفيّلٌ بذلك على الوجه الأكمل والطريق الأقوم، ألا ترى حسن ما شرعه من المعاملات في المعاوضات كلّها والتبرّعات، وما أوجبه من الحقوق بين النّاس على حسب ما تقتضيه المصلحة والضرورة والظروف، وما فيه من قواعد العدل التي لا غنى للخلق كلّهم عنها، وما فيه من الحدود والعقوبات للمجرمين بحسب جرائمهم، فلو وكلّ النّاس إلى عقولهم في هذه الأمور لصارت تبعاً للأهوية

والأغراض، وحصلت الفوضى بحسب ما ترك من نظمات الشريعة. وكلُّ قاعدة نافعة موجودة عند الأجانب، وكلُّ نظام نافع عندهم، فإنما أصله مأخوذ من الدين الإسلامي.

فليذكر لنا المنحرفون أصلاً نافعاً ومعاملةً نافعة وعملاً نافعاً خارجاً عن الدين الإسلامي.

ولن يجدوا إلى ذلك سبيلاً، وكيف يجدون السبيل والذي أنزله وشرعه للخلق هو الرب الرحيم، الذي وسعت رحمته كلَّ شيء، وأحاط علمه بكل شيء، وعلم أحوال الخلق ماضيها ومستقبلها، فلا يخفى عليه منها مثقال ذرة، وأحكم ما شرعه غاية الأحكام، كما أحكم ما قدره في أحسن نظام، أليس من أجل طرق الصلاح الشكر عند النعماء، والصبر عند المصائب والضراء، الأمران اللذان لم يزل ولا يزال الخلق في هذه الدنيا بينهما يتقلبون، ولا يمكن أن يخلو منهما مخلوق في وقت من الأوقات، ولا حالة من الأحوال.

فسل الشاك في اشتمال الدين الإسلامي على غاية الصلاح: هل ما يدعو إليه الدين الإسلامي من مقابلة النعم والخيرات بالشكر والثناء على موليتها والاستعانة بها على ما يحبه ويرضاه في صرفها في الوجوه النافعة، ومقابلة المكاره والمصائب بالصبر والرضا عن الله والتسليم لأقداره، فيكون العباد عند النعم من الشاكرين، وعند المكاره من الصابرين، ويكسب الحياة الطيبة في الدنيا، مع ما يدخره الله له في الآخرة، أم مقابلة النعم بالأشر

والبطر، والمكاره بالسُّخْط والآلام القلبية والزلازل الرُّوحِيَّة كما هو أمر لازم للمنحرفين؟! فالعاقل لا يشكُّ أنَّ الأمرين لا يستويان.

وقل له: أيُّ الأمور خير، ما دعا إليه الدين من قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، الذي به صلاح الأمور، أم طريقة الإسراف والتبذير، وطريقة البُخل والتقتير؟ ومادعا إليه الدِّين من الإحسان في عبادة الخالق وإيقاعها على أحسن الوجوه وأكملها والإحسان إلى الخلق بكل وسائل الإحسان، أم ما يدعو إليه المنحرفون من الإعراض عن عبادة الله وحده، والإقبال التَّام على شهوات النَّفوس الخسيسة، وجعلها هي مبلغ علم الإنسان، وكل همه منع الإحسان إلى الخلق، بل مقابلة الإحسان بالإساءة؟!!

فلا بد أن يقول العقل الصَّحيح: هذا الأمر الجليُّ لا يحتاج إلى طلب ترجيح.

وقل للشَّاكِّ في حسن الدِّين الإسلامي: هل ما دعا إليه من وجوب برِّ الوالدين وصلة الأرحام وأداء حقوق الأصحاب والجيران والمعاملين بطريقة العدل والفضل خير أم طريقة الأثرة والعقوق والقطيعة والجور في المعاملات؟!!

وقل له: الله قد وهبنا عقولاً وقوى ظاهرة وباطنة نتمكَّن بها من إدراك سعادتنا، ودفع شقاوتنا، فهل إذا استعملنا ما وهبنا ربُّنا من ذلك فيما خلقنا له من عبادة ربِّنا والقيام بحقوقه وحقوق عباده ورضوخ تلك المواهب

والقوى لأحكام من أنعم بها ووهبها، والسُّلوك من ذلك الطَّرِيق المستقيم إلى ربنا والاستعانة بما أعطانا من المنافع الدنيوية إلى إصلاح ديننا ومصالحنا الكليَّة، أم الأولى بنا أن نستعمل العقول والقوى في أمور تافهة طفيفة، لا تغني عن صاحبها شيئاً إن لم يؤسِّسها وبينها على الدِّين، وإنَّما يجعلها تبعاً لشهواته، ووقفاً على مراداته ولو أهلك وضرَّ أخراه؟!!

فالدِّين الصَّحيح يدعو إلى الأوَّل، وطُرق الانحراف تدعو إلى الثاني.

وقل له أيضاً: أيُّها أولى بالعبد أن يتَّبع ما دعا إليه الدِّين من إخلاص الدِّين لله وحده، وتعليق الرِّغبات والرَّهبات بالله، وأن لا يرجو ولا يطمع إلا بفضل الله وكرمه، أو تعليق ذلك بالمخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

وقل له: إذا كان الرَّبُّ هو الذي خلقنا ورزقنا وهدانا وعافانا وتفضَّل علينا بالنِّعم الظَّاهرة والباطنة، ألا يجب علينا أن يكون هو معبودنا، وهو الذي نحمده ونشكره، ونبذل له ما في وسعنا واجتهادنا، ومع ذلك فإننا لا نبلغ بذلك مقابلة أدنى نعمة من نعمه علينا. فهل يليق بنا أن نصرِّف شيئاً من ذلك في شكر غيره، وعبودية غيره؟ لا والله إنَّ هذا أمر يستقبحه الشَّرع والعقل والفطرة.

وقل للشَّاك في تعاليم الدِّين الرَّاقية: أليس الدِّين الإسلامي يحثُّ المسلمين أن يكونوا إخوة متألِّفين متَّفقيين على دينهم، وعلى أصوله، وعلى جميع مصالحه، ويرغبهم في هذا الأصل غاية التَّربُّغ، ويذكر لهم ثمرات

ذلك العاجلة والآجلة، ويزجرهم أشدَّ الزجر عن كلِّ ما ينافي ذلك، من التَّبَاغُضِ والتَّدَابِيرِ والتَّقَاتُعِ، ويخبرهم أنَّ إصلاح ذات البين هو السَّبب والطَّرِيقُ لِصَلَاحِ الْأَحْوَالِ، كما أنَّ فساد ذات البين: هو السَّببُ فِي الْأَضْرَارِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ.

فهل يوجد طريق لِصَلَاحِ الْأَحْوَالِ الكَلْبِيَّةِ غير هذا الطَّرِيقِ الَّذِي يَرشُدُ إِلَيْهِ الدِّينُ بِجَمِيعِ وَجُوهِهِ؟!.

وقل للشَّاكِّ فِي كِمَالِ الدِّينِ: إِذَا قَالَ: نَحْنُ نَعْتَرِفُ بِمَا اِحْتَوَى عَلَيْهِ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ مِنَ الْإِصْلَاحَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ أَوِ الْقَلْبِيَّةِ أَوِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَمَا اِحْتَوَتْ عَلَيْهِ أَحْكَامُهُ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ مِنَ الْحَسَنِ الَّذِي لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَقْتَرِحَ الْعُقُولُ أَحْكَامًا مِثْلَ أَحْكَامِهِ، فَضْلًا عَنْ كَوْنِهَا تَقْتَرِحُ أَعْلَى مِنْ أَحْكَامِهِ، وَلَكِنْ نَشْكُ فِي اِحْتَوَائِهِ عَلَى الْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَعَلَى الصَّنَاعَاتِ وَعَلَى عِلْمِ السِّيَاسَةِ.

فأجبه قائلًا: أليس فيه قواعد وأصول من علم الاجتماع والسِّيَاسَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْتَرِعَ الْمُخْتَرِعُونَ أَحْسَنَ مِنْهَا؟! أليس فيه الأمرُ بِالْمِشَاوَرَةِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالخَارِجِيَّةِ؟! فَمَا الْمَقْصُودُ مِنَ الْمِشَاوَرَةِ إِلَّا النَّظْرُ فِي الْمَصَالِحِ وَالْمَضَارِّ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَتَقْدِيمُ مَا تَعِينَتْ مَصْلَحَتُهُ أَوْ تَرَجَّحَتْ، وَاجْتِنَابُ مَا تَعِينَتْ مَضَرَّتُهُ أَوْ تَرَجَّحَتْ.

فالسِّيَاسَةُ الْحَكِيمَةُ كُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى الشُّورَى فِي الْأُمُورِ، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿وَسَخَّرْ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجنائفة: ١٣]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ

سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿ [لقمان: ٢٠]؛ أي: سخَّر لنا جميع ما في الأرض لنتنفع بغيرسها وزرعها وحرثها واستخراج معادنها، والانتفاع بصناعاتها، وكذلك قال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، فأطلق المنافع، فشملت المنافع الدنيوية والمنافع الدنيوية، خصوصاً منافع الأسلحة المتنوعة التي تجري مع الزَّمان والأحوال والصناعات التي ينتفع بها النَّاس في كلِّ شيء، ألم يقل الله: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]؟، فهذا يدخل فيه كلُّ قوَّة عقلية وسياسية، وتعلُّم الفنون الحربية، والرُّكوب والرَّمي، وتوابع ذلك، وكذلك أمر بأخذ الحذر من الأعداء، وذلك بالتخلُّص والتحصُّن والتحرُّز منهم بكلِّ وسيلة تحصل بها الوقاية والتَّحرُّز.

وكم في كتاب الله وسنة رسوله من الأمر بالجهاد ومقاومة الأعداء، فيدخل في ذلك كلُّ وسيلة تُعين على الجهاد في سبيل الله، فعلم بذلك أنَّ الدِّين الإسلامي قد احتوى على جميع المصالح والخيرات العاجلة والآجلة، والنفعة الكلي والجزئي والديني والدنيوي.

فهذه كلماتٌ كلياتٌ يُعرف تحقيقها بتتبع الأنواع والأجناس والأفراد وتحقيق الأمر فيها، وهذا من أكبر الآيات والبراهين أنَّه ﴿ نَزَّلَ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١].

ومما يدلُّ على عظمة هذا الدِّين أنَّ الله أباح جميع الطيبات من المآكل

والمشارب والملابس والمناظر والمناكح والتَّمَتُّعات، وحرَّم كلَّ خبيث من هذه الأمور ضارًّا لصاحبه وللمصلحة العمومية، وأنَّه ما أمر بشيء فقال العقل الصَّحيح الحر: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به، ولا أخبر بما تُحِيله العقول، بل أخبره نوعان: نوع تشهد العقول بصحته وكماله وفضله.

ونوع لا تهتدي إليه ولا تعرفه لعدم وصولها إليه، لكونه من عالم الغيب الذي لم تشاهده ولا شاهدت نظيره.

وهذا النَّوع قد أرى الله عباده في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات ما يدلُّ على صدق ما أخبرت به الرُّسل ونطقت به الكتب السَّماوية.

من نظر وأمعن النَّظر في هذه الأصول التي تلونها ونبَّهنا عليها تبيينًا مختصرًا علم علمًا يقينًا أنَّ الدِّين الإسلامي هو الدِّين الحق في علومه وعقائده وأخلاقه وأعماله وسياسته، وحُسن معاملته للخلق، وإحسانه إلى الموافق والمخالف، وأنَّه يدعو إلى سبيل الحقِّ بالحكمة التي هي سلوك الطُّرق والوسائل القولية والفعلية التي يستعان بها على الدَّعاية إلى سبيل الله الذي هو الصِّراط المستقيم، وأنَّه يأمر باللِّين وعدم المخاشنة في مخاطبة المحاربين للدِّين، فكيف بذلك مع المؤمنين؟!

فيقول لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ الْعَالَمِينَ فَظًا

غَلِيظًا أَلْقَبَ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال لموسى وهارون:

﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

ثم انظر إلى ما يخاطب الله به أعداء الكفار، وتخاطبهم الرُّسل، فإنه الطَّرِيقُ الأقوم لهذا الطريق والدُّعَاية إلى الخير، وبه يحصل من المنافع ودفع المضار ما لا يحصل بالمخاشنة والمشاتمة، فإنها طريقة الجاهلين الحمقى، وإن حُسنت مقاصدهم فقد ساءت طرائقهم.

وهذا آخر ما يسر الله من هذه الرسالة الأصولية المحتوية على قواعد وأصولٍ مختصرة جامعة، ونسأله تعالى أن يشبِّتنا على دينه، وصراطه المستقيم، إنه جوادٌ كريم، وصلى الله وسلّم على عبده ورسوله سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله تعالى

عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي

غفر الله له ولوالديه، وجميع المسلمين.

ونقلته من خطِّ شيخنا المكرّم متّع الله لنا بحياته

وأنا الفقير إلى ربِّ البريّات عبده ابن عبده:

عبد العزيز بن صالح بن دامغ، وذلك بغاية من العجلة.

حرّر في ١ / جمادى الثاني / ١٣٦٦ هـ

الدلائل القرآنية

في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية

راخلة في الدين الإسلامي

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله غير الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** تسليماً.

أما بعد، فهذه رسالة تتضمن البراهين القواطع الدالة على أن الدين الإسلامي، وعلومه وأعماله وتوجيهاته، جمعت كل خير ورحمة وهداية وصلاح وإصلاح مطلق لجميع الأحوال، وأن العلوم الكونية والفنون العصرية الصحيحة النافعة داخلة في ضمن علوم الدين وأعماله ليست منافية لها كما زعم الجاهلون والماديون، ولا جاءت الفنون العصرية النافعة بشيء جديد كما ظنه الجاهلون أو المتجاهلون، بل النافع منها للدين والدنيا وللجماعات والأفراد داخل في الدين، والدين قد دلّ عليه وأرشد الخلق إليه، وإلى كل أمر نافع إلى أن تقوم الساعة، وبيان أن الفنون العصرية إذا لم تبن على الدين وتربط به، فضررها أكثر من نفعها، وشرها أكبر من خيرها، ولكن هذا الأصل الكبير يحتاج إلى أمرين: أحدهما: معرفة ما دلّ عليه الكتاب والسنة إجمالاً وتفصيلاً.

والثاني: معرفة بالأمر الواقعة والحقائق الصحيحة التي يعرفها ويعترف بها العقلاء المنصفون.

فمتى عرف الإنسان الأمرين عرف أنه لا يشذ عن علوم الدين الإسلامي وأعماله وفنونه شيء فيه خير وصلاح أصلاً، واستدل العارف بكل من الأمرين على الآخر، وعرف أن النقص بالإخلال بهما أو بأحدهما، ومتى عرفت الأصول الكلية رُدت إليها الجزئيات، ومتى تكلمتكم بشيء من الجزئيات قبل أن يعرف الكليات حصل الغلط الفاحش، وقامت الشبه التي لا تروج إلا على الجاهلين أو يروّجها المعاندون.

فصل

معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، فهذه الآية الكريمة صرحت بأن الله تعالى يقول الحق وهو الصدق واليقين في أخباره، والعدل والحكمة في أوامره ونواهيه، فكل ما أخبر به فهو حق وصدق ونافع للعباد في إصلاح عقائدهم وأخلاقهم ودينهم ودنياهم، وكل ما أمر به فهو برٌّ وخير وإحسان ونفع وبركة، وكل ما نهى عنه فهو شر وضرر وفساد لا فرق في هذا بين الأمور الدنيوية والدينية.

وشريعة الإسلام كلها تفصيل لهذا الأصل العظيم الذي ذكره الله في هذه الآية وغيرها، ثم قال: ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ وهو الطريق الموصل إلى الحق الذي يقوله ويحكم به، فتكفل الله لعباده أنه لا بد أن يبين لهم هذا الحق النافع بالأدلة الواضحة العقلية والنقلية كما قال في الآية الأخرى: ﴿سَأُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، فإنه تعالى لما أخبر بتوحيده وتفردّه بالكمال المطلق من جميع الوجوه، وأمر بعبادته وحده لا شريك له وإخلاص الدين له، وأن قوله حق، ووعدّه ووعدّه حق، ورسوله وكتابه حق، أخبر أنه لا بد أن يريهم من الآيات في أنفسهم وفي الأفاق ما يتبين لهم أنه الحق، وأن ما سواه باطل.

فآيات الأفقية الكونية، والآيات النفسية، كلها تحقق هذه الأصول العظيمة ويُعرف بها أن الله هو الحق، وقوله وكتابه ودينه حق.

فآيات الأفقية مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وآيات كثيرة يجبر فيها عن أحوال الكون، وأنه آيات وأدلة على وحدانية الله وصدقه وصدق رسله.

فالذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة بهذه الأوصاف البديعة، وعلى هذا النظام العجيب والخلق الكامل والإحكام والحسن، هو المتفرد بالربوبية والإلهية واسع الرحمة والحكمة، وهو الذي أحاط بكل شيء علماً، ومن كان هذا شأنه فهو الذي يجب أن يُعبد وحده لا شريك له، ويشكر ويذكر، لما له من عميم الإحسان وسوابغ النعم.

وما فيها من عظيم الخلق دال على كمال قدرته وعظمة سلطانه، وما فيها من النظام البديع الحسن والخلق الكامل دال على شمول حكمته ومحمده، وما فيها من التخصيصات المتنوعة دال على نفوذ مشيئته وإرادته، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد التي لا يمكن إحصاؤها ولا تعداد أجناسها

فضلاً عن أنواعها فضلاً عن أفرادها، دليل على سعة رحمته وعموم فضله وكرمه وجوده وإحسانه.

وكل ذلك دليل على وجوب عبادته وإخلاص العمل له، وأن الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة قادر على أن يحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير.

الآيات النفسية والأفقية:

وأما الآيات النفسية، فإن الله قال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]، ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۗ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥-٦] ونحوها من الآيات التي ينبه الله فيها الإنسان على التأمل والنظر في ابتداء خلقه وتطوره، وكيف تنقلت به الأحوال من النطفة إلى أن صار إنساناً كاملاً في بدنه وفي عقله، وكيف أحسن الله خلقه، ونظّمه هذا النظام العجيب، فوضع فيه كل عضو يحتاج إليه في منفعه كلها، ووضع كل عضو في محله اللائق به الذي لا يحسن ولا يليق أن يوضع إلا في محله.

ثم ليتأمل في غذائه وما أودع الله فيه من قوة الشهوة للطعام والشراب وتوابعها، وما وضع فيه من الآلات المعينة على الأكل والشرب، وما أودع فيه من الحرارة العظيمة التي تطبخ الأطعمة الغليظة والخفيفة ثم تنفذها إلى جميع أجزاء البدن، فيأتي كل عضو وحاسة حظها ونصيبها من الغذاء الذي لولاه لتلاشى الإنسان وهلك.

وجعل الله لثفل الأغذية وما لا ينفع في الغذاء مجاريه تندفع إليها وتخرج من البدن؛ لئلا تبقى فيه فتضره أو تهلكه، ثم لينظر الإنسان ما وضع الله فيه من العقل الذي يتميز به عن الحيوانات كلها، وهدى الله فيه الإنسان إلى هدايات دينية وديوية لا يمكن عدّها ولا إحصاؤها، وكما هداه بالعقل إلى الانقياد لعلوم الرسل وأديانهم، هداه به إلى تسخير المواد الكونية والمعادن والمخترعات والصناعات التي لا تزال تتجدد كل وقت. وقد أخبر تعالى أنه سخر لنا جميع ما في السماوات والأرض ننتفع بآياتها ونستخرج منافعها وكنوزها ونشكره على ذلك التسخير والهداية والنعم التي لولا فضله وكرمه، لم يحصل لنا منها شيء.

ومن آياته الأفقية النفسية إخباره تعالى أنه سخر للإنسان جميع ما في السماوات والأرض ومعادن الكون وعناصره، ثم إخباره بأنه أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد وآلات العلم، وعلمه ما لم يكن يعلم، فحمل بهذا التسخير وبهذا التعليم من فنون العلم وفنون المخترعات الباهرة ما هو مشاهد معلوم ترقّت به الصناعات، وتوسعت به المخترعات وتنوعت به المنافع، وتقاربت به الأقطار الشاسعة، وتخطب به أهل المشارق والمغارب.

أما يدل ذلك دلالة قاطعة على كمال قدرة الله وصدق ما أخبر به من الغيوب التي كان المكذبون ينكرونها استبعاداً لها وقياساً منهم لقدرة من يقول للشيء كن فيكون على قدرة الأدمي الضعيف في علمه، وفي قدرته وفي أحواله كلها؟

فأراهم الله من آثار قدرته على يد هذا آدمي ما دلهم على كمال قدرة خالقه ومعلمه، وعلى وحدانيته وصدق رسله، وهو لا يزال يريهم آياته شيئاً فشيئاً في الآفاق وفي أنفسهم، فانتفع بذلك الذين يريدون الحق واتباعه، وقامت الحجّة البالغة على المعاندين المكابرين، وصار علمهم وبالأعلى عليهم إذ تكبروا به وامتلاؤا غروراً باطلاً، فالله الذي خلق الإنسان وأعدّه وأمدّه بكل وسيلة يدرك بها أنواع العلوم النافعة والفنون المتنوعة الدينية والدنيوية، وربط هذا بهذا، فأمر بالقيام بالدين والاستعانة بهذه الوسائل على قيام الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَعَمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

وأمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِتْيَاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].
وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فالمؤمنون تمت عليهم النعمة في الدنيا والآخرة، واستعانوا بالطيبات وأصناف المنافع التي لا تحصى على عبادة الله وطاعته، وصار اشتغالهم بهذه المنافع التي يتوسل بها إلى إصلاح الدين والدنيا عبادة من العبادات وقربة من القربات.

وأما من سواهم من الماديين والضالين الغافلين، فإنهم عرفوا ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، واشتغلوا بالدنيا عن الدين

ونسوا الله فأنسأهم أنفسهم وأنسأهم مصالحتها، فتمتعوا فيها تمتع الأنعام السائمة، فخرسوا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين. فانقطعوا بالأسباب عن مسببها، وانقطعت صلتهم بالله حين قام الكبر في قلوبهم، كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

استعد بالله من هذا الكبر الذي حال بين الإنسان وبين سعادته، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

فصل

التفكير في كيفية جريان الطعام والشراب

وإذا فكّر العبد في قوته: طعامه وشرابه كيف يدخل من مدخل واحد ويستقر في موضع واحد وهو المعدة، فيقيض الله له في ذلك الموضع من الحرارة والأسباب الأخر ما ينضجه ويتميز جوهره وصافيه ونافعه، فيتفرق في جميع أجزاء البدن لتغذيتها وتنميتها، وما يبقى من الثفل جعل له مخارج يخرج منها؛ لئلا يبقى فيضر ويقتل؟

ولا يزال هذا المعمل العظيم يعمل عمله بإذن الله ويؤدي مهامه، فهل هذا من مقتضى الطبيعة والمصادفة، كما يقوله الماديون؟ أم هذا تقدير العزيز العليم الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل له السمع والأبصار والأفئدة، فتبارك الله أحسن الخالقين؟

وقد نبّه الله على البعث بالتفكير في أطوار الإنسان وتنقلاته، فقال:

﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَّبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّكُمْ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّنُوفٌ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ

لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ [الحج: ٥ - ٧].

فجعل الله تنقل الإنسان في هذه الأطوار وإحياءه الأرض بعد موتها دليلاً وبرهاناً على هذه الأمور الخمسة التي يتميز بها المؤمنون، ويثبتونها تصديقاً لله ولرسوله، واستدلالاً بهذه البراهين العقلية الحسنة.

فصل

«نعم الله الظاهرة والباطنة»

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَكُفُّمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَالْيَهُ تَجَشَّوْنَ ﴾ [النحل: ٥٣]، وعدّد الله على العباد في كتابه أصناف النعم وأجناسها وقال: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

فالنعم الظاهرة والباطنة كلها من الله، الحاصلة بغير سبب منهم والحاصلة بالأسباب التي هداهم إليها ويسرها لهم، وهو الذي أوجدها وأوجد أسبابها ووسائلها، وذلك شامل لنعم الدين ونعم الدنيا.

فعلوم الكون وفنونه كلها من نعمه وتيسيره، وهو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم وأقدره على ما لم يقدر عليه لولا إقداره، فعليه أن يشكره على ذلك كله، ومن الشكر اعترافه أنها من الله، ومن تيسيره، والاستعانة بها على ما خلق له العبد.

فصل

قال الله تعالى: **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾** الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ
إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ﴿١﴾ **اللَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ
لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾** [إبراهيم: ١ - ٢].

أخبر تعالى أنه أنزل القرآن على رسوله محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في وقت تراكم فيه الجهل والظلم والظلمات وأنواع الشرور، ليخرج الناس به من هذه الظلمات المتراكمة فيعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ويحرك عزائمهم ويثير هممهم وحواسهم إلى الخير وإلى الإيمان به، ويرسله وطاعته وطاعة رسوله، فتستنير معارفهم وتتضح طريقهم ويستقيم سلوكهم، وتتم لهم بذلك الخيرات وتندفع عنهم الشرور والمضرات.

فمن تلقى هذا الكتاب الذي هو أكبر النعم بفهم وقبول وانقياد لأوامره وإرشاداته المتفرعة المصلحة للدين والدنيا، فقد استقام على الصراط المستقيم، ومن أعرض عنه أو عارضه، فهو الكافر الذي فسدت أحواله.

﴿ **وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿١﴾** فإنه لم يكن كفرهم عن

اشتباه وخفاء للحق أو اتباع طريق هدى، بل كفرهم صدر عن رغبة في الترف وحب الدنيا الذي صدَّهم عن الهدى والحق فاستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، أولئك في ضلال بعيد، وأي ضلال أعظم من ضلال من أثر الهوى على الهدى، والشقاء على السعادة، والشر على الخير؟

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وذلك أن العقل وحده لا يستقل بمعرفة الله، ولا يعرف عبادته وتفصيلها ولا تفاصيل اليوم الآخر، حتى يهتدي بنور الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله، ويكون له قلب يجعل الأفكار والتصورات إرادات وهمًا تحثُّ صاحبها على اختيار النافع على الضار، والخير على الشر، والهدى على الضلال، والأخلاق الجميلة على ضدها، فالقلب الحيُّ إذا نظر في الوحي، وتأمل ما جاء به الرسل من الحق في عقائده وأخلاقه وأعماله، لم يُؤثر على ذلك شيئًا، فإنه يعلم أنه ليس بعد الحق إلا الضلال.

فالتصورات والعلوم وحدها بلا قلب يتطلع إلى الخير والحق لا تكفي وحدها، بل قد يكون ضررها كثيرًا خللًا عن الإيمان، وخلوها عن التوجيهات الصحيحة، ولتكثر أهلها بها، كما قال الله عن أمثال هؤلاء: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

فجحدهم لآيات الله واستكبارهم عنها، واستهزاؤهم بها، واحتقارهم لأهلها أوجب لهم فقد الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى حَقَّ عليهم العقاب، فانظر كيف كانت علومهم التي لم تبْنَ على الإيمان، وإنما هي علوم جافة منحرفة صارت سبباً لمعارضتهم الرسل وبقائهم على ما هم عليه من الكفر والتكذيب بالحق، فنعوذ بالله من علم لا ينفع.

فصل

الله أعطى كل شيء خلقه

وقال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]؛ أي: أعطى كل مخلوق خلقته اللاتقة به المناسبة لحاله، ثم بعد هذا الخلق هدى كل مخلوق لما خلق له، وهذا يشمل أنواع الهدايا كلها. فالحوانات غير الإنسان، هدى كل صنف منها إلى ما يناسبها مما لا تتم حياتها الحيوانية إلا به، من جلب المنافع الخاصة ودفع المضار عن نفسها. وأما الإنسان، فهده الله هذه الهداية واختصه بهدايات أخر استكمل بها دينه ودنياه إذا استعملها كلها، وأما إذا استعملها في غير ما خلقت له، فهذا قد استحَب واختار العمى على الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

وبهذه الهداية الخاصة بالإنسان سخر له جميع ما وصلت إليه قدرته من علوم الكون، وهذه الهداية تشمل الهداية المجملة والمفصلة في علوم الشرع وأعماله، وفي علوم الكون وأعماله، فعلمه العلوم الشرعية وهده إلى معرفتها ثم إلى العمل بها، وعلمه علوم الكون ثم يسر له سبلها فسلكها، وكل أحد أعطاه من هذه الأمور ما هو اللائق به وما تقتضيه حكمته التي منها إن عرف الأمور النافعة وحرص عليها، وعلى اتباع الحق واستعان

الله عليها يسرها عليه وفتح عليه منها بحسب حاله وقوته وكفاءته، كما قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»، وهذا الحديث في الصحيح.

فقوله: «احرص على ما ينفعك»، دخلت فيه الأمور الدينية والدنيوية، فمن حرص عليها، واجتهد في تحصيلها، وسلك الطرق الموصلة إليها واستعان الله عليها تم له ما أراد، ومن لم يحرص على الأمور النافعة أو لم يستعن بالله في تحصيلها خاب وخسر.

وقد أخبر الله في عدة آيات أن القرآن هدى للناس وأنه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ويهدي للتي هي أقوم، فكل أمر فيه خير وصلاح ونفع فالقرآن يهدي إليه ويرشد العباد إليه.

فصل

إرسال الرسل بالبينات،

وإنزال الكتاب والميزان والحديد

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ نِصْرِهِ، وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

فأخبر تعالى أنه أرسل الرسل لهداية الخلق، وأيدهم بالآيات البينات المبينة للحقائق الدالة على صدقهم وحقيقة ما جاءوا به، وأنزل معهم الكتاب الذي فيه الهدى والرحمة، وأنزل معهم أيضاً الميزان الذي هو العدل وما يعرف به العدل من أصول العدل وفروعه، وذلك ليقوم الناس بالقسط إذا عملوا بها في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم وسلوكهم، وجميع أمورهم.

فمتى عملوا بما أنزله الله من الكتاب والميزان، صلحت منهم هذه الأمور واستقامت أحوالهم.

وأخبر تعالى أنه أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، فخص منفعه في أمور الحرب ثم عممها في سائر الأمور، فالحديد أنزله الله لهذه المنافع الضرورية والكمالية الخاصة والعامة.

فجميع الأشياء إلا النادر منها تحتاج إلى الحديد، وقد ساقها الله في سياق الامتنان على العباد بها، ومقتضى ذلك الأمر باستخراج هذه المنافع بكل وسيلة، وذلك يقتضي تعلم الفنون العسكرية والحربية وصناعة الأسلحة وتوابعها، والمراكب البحرية والبرية والهوائية، وغير ذلك مما ينتفع به العباد في دينهم وديناهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِمْ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَخَذُوا حِذْرًا مِنْكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، فهذا يتناول الأمر بإعداد المستطاع من القوة العقلية والسياسية والمادية والمعنوية، وأخذ الحذر من الأعداء بكل وسيلة وبكل طريق، فجميع الصناعات الدقيقة والجليلة والمخترعات والأسلحة والتحصينات، داخلة في هذا العموم.

فهذا الدين الإسلامي يحثُّ على الرقي الصحيح، والقوة من جميع الوجوه، عكس ما افتراه أعداؤه أنه مخدَّر مفتر، وهم يعلمون كذبهم وافتراءهم عنه، ولكن المباهتات والمكابرات سهلت عليهم وظنوا من جهلهم أنها تروج على العقلاء، وكل عاقل يعلم كذبهم وافتراءهم، وإنما يغترُّ بهم الجاهلون الضالون الذين لا يعرفون عن الإسلام لا قليلاً ولا كثيراً، بل يصوِّرون لهم هؤلاء الأعداء الإسلام بصور شنيعة؛ ليرؤجوا ما يقولونه من الباطل، وإلا فمن عرف الإسلام معرفة صحيحة عرف أنه لا يستقيم أمور البشر دينها وديوبها إلا به، وأن تعاليمه الحكيمة أكبر برهان على أنه تنزيل من حكيم حميد، عالم بالغيب والشهادة، رحيم بعباده، حيث

شرع لهم هذا الدين الذي قال فيه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَبُرِّكِيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال في وصف النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووصف ما جاء به من الدين: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فأخبر أنه لم يبق معروف عقلاً وشرعاً إلا أمر به، ولا منكر إلا نهى عنه، ولا طيب نافع إلا أحله، ولا خبيث ضار إلا نهى عنه، وأنه مع ذلك سهل ميسر قد وضعت عن أهله الآصار والأغلال وأنواع المشاق، وأن من التزمه وآمن به، واتبع النور الذي أنزله معه، فهو المفلح في دينه ودنياه. والفلاح هو الفوز بكل مطلوب مرغوب، والنجاة من كل هلاك

ومرهوب، لأنه يهدي للتي هي أقوم من الأخلاق والأعمال وصالح الأحوال.

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

فالحق هو ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصول الدين وفروعه وفي أمور الدين والدنيا، والباطل ما خالفه وناقضه.

فكل ما خالف الدين الإسلامي، فهو باطل لا يثبت للحق عند المقابلة، وإنما يروج إذا غاب الحقُّ عنه عند الجهال بدين الإسلام، وإلا فمتى عرف الدين الإسلامي على ما هو عليه، فإن أهل العقول الوافية والألباب الصافية لا يبتغون به بدلاً، ولا يختارون عليه سواه، لأنه يدعو إلى سعادة الدنيا والدين، فيجمع بين السعادتين.

فهؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، وهم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْاَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

وهم حين قاموا بالإيمان والعمل الصالح الذي يشمل شرائع الدين كلها أنجز لهم ما وعدهم من الاستخلاف في الأرض والتمكين والعز والكمال، وحين قصرُوا في ذلك عُوقبوا بتسلُّط الأعداء، فكان هذا العز إذ قاموا بدينهم وهذا الذل الذي أصابهم حين ضيَّعوه أكبر برهان على أن الدين هو الحق، وأنه مدار السعادة والفوز في الدنيا والآخرة، وأن الشقاء والخذلان بتضييعه.

وأما ما حصل لأعدائه من عز مؤقت على وجه الاستدراج، فكما قال الله عنهم: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧] ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الأنعام: ٤٤ - ٤٥].

فصل

أمر الله بالتفكير والتدبر

وقد أمر الله بالتفكير والتدبر في السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء، وحثَّ على استعمال الفكر في آياته المخلوقة، وفي آياته القرآنية: ﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢]، ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِيَتَذَكَّرُوا أَيْتِيهِمْ وَلِيَتَذَكَّرُوا أَلْوَأ الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

فقد أمر باستعمال العقل والفكر في آياته المخلوقة وفي آياته المتلوة، ليدرك العبد بعقله ما في المخلوقات من المنافع والآيات فيفقهها ويستعملها وينتفع بها بحسب أحوالها، وأخبر أنها آيات لقوم يؤمنون، ولقوم يعقلون، ولقوم يوقنون.

فأهل الإيمان والعقل الصحيح واليقين الصادق تفكروا فيها، وانتفعوا وارتفعوا في الدنيا والآخرة، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، فالذين لا ينتفعون بآيات الله:

- إما رجل في غاية الجهل والضلال قد حُرِمَ نعمة العقل والفهم.
 - وإما رجل معاند مكابر قد غرَّه عقله وذكاؤه وتكبرَّ عن آيات الله.
- فالعاقل الموفق كلما تفكَّر في الكون، وفهم أسرارَه وحكمه امتلأ

قلبه إيمانًا و يقينًا، وقال: سبحان الله عن أن يخلق شيئًا عبثًا أو سُدىً،
وسبحانه أن تكون أفعاله البديعة خالية من الحِكم والغايات الحميدة،
وسبحان من خلق هذا الكون العجيب المحكم في نظامه، واتساقه
وارتباط بعضه ببعض ما بين أرضه وسماؤه وإنسانه وحيوانه ونباته،
فعرف أن خالقها ومدبرها ربُّ واحد وإله واحد، فتوجه إليه بالإيمان
والاعتراف والشكر والطاعة، وخضع لحكمته وعظمته وسلطانه، ولم
يكن ككثير ممن انقطعوا بالمخلوقات عن خالقها وبالمسببات عن مسببها،
ولم ينفذوا في علمهم من السبب إلى المسبب ومن الخلق إلى الخالق،
كحالة أكبر الماديين القاصرين في علمهم وعقلهم.

والعاقلُ يحمد الله على العافية من هذا الداء العُضال، الذي هلك فيه
كثير من الخلق.

فصل

أمر الله بالمشورة

قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]،
وقال عن المؤمنين: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وهذا الأمر الذي أمر الله نبيه فيه بالمشاورة، وأخبر عن المؤمنين أنهم يتشاورون فيه، يشمل جميع الأمور الدينية والدينية المتعلقة بهم وبغيرهم، فدل ذلك أن الأمور التي توضح مصلحتها ومنفعتاتها تتعين المبادرة إلى فعلها، وما وضحت مضرته يتعين البعد عنه، وما اشتبه منه يستعينون عليه بالمشاورة والمرادة، حتى يتضح فيه الصواب ويتبين فيه النفع أو الضرر.

ولا يستريب عاقل أن هذا الأصل العظيم الذي أمر الله به ومدحه، وهو المشاورة في الأمور، هو السبيل الوحيد لصلاح الأحوال كلها، وأنه كما تدخل فيه العلوم والأعمال الشرعية، فكذلك العلوم والأعمال المادية، وكما يدخل فيه أمور الأفراد يدخل فيه أمور الجماعات، وفوائد المشاورة الضرورية والكمالية لا تُعدُّ ولا تُحصى، وتوقف كثير من الأمور عليها أمر معلوم لكل أحد، وكل أمر من الأمور يشاور فيه أهله وأهل الخبرة به، والمعرفة والقوة عليه.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٣-٧٤].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

والصراط المستقيم الذي يدعو إليه الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويدعو إليه هذا القرآن العظيم، هو الطريق المعتدل الذي يتضمن استقامة العقائد والأخلاق، والأعمال المصلحة للدين والدنيا وللأفراد والأمة، وهي تتضمن العلوم والأعمال الشرعية والكونية؛ لأن جميعها لا تتم الاستقامة إلا بها، وأمور المادة وحدها لا تُغني شيئاً وضررها أكبر من نفعها، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ

لَنُكَبِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٣].

فصل

ضلال الملحدین القائِلین بوجود الحوادث صدفة

إذا أردت أن تعرف ضلال الملحدین الماديين الذين يقولون: وُجِدَت الموجودات والحوادث مصادفة بلا خالق خلقها ولا مبتدع أحدثها، وأنهم مع ضلالهم المبين في حمق وجنون لا يخفى إلا على من ليس له عقل ولا سمع ولا بصر، إذا أردت أن تعرف ذلك منهم وتعرف أن الأمور كلها بخلق الله وتقديره وتدبيره، فانظر إلى هذا العالم العظيم: شمس وقمره وكواكبه وأرضه وما فيها من الحوادث، وتأملها ببصرك وبصيرتك، تجدها كلها في غاية الحسن والإحكام والنظام والبديع الدال دلالة قاطعة أن خالقها واحد أحد، فرد صمد، حكيم عليم، وأنه على كل شيء قدير، وأن العقول والألباب لتحار إذا توجهت إلى حكمته وبديع نظامه في بعض مخلوقاته فضلاً عن جميعها، فتبارك الذي أحسن كل شيء خلقه، وقدره تقديرًا.

انظر إلى الشمس والقمر ومقدار بُعدهما من الأرض، وأنهما لو قربتا من الأرض زيادة عن هذا الواقع أو بعدتا كذلك، لحدث الضرر الكثير في الأبدان والنباتات، وجميع ما على وجه الأرض.

وانظر ما يترتب على سيرهما من تعاقب الفصول الأربعة المضطر إليها

الإنسان والحيوان والنبات، وما فيها من منافع الضوء والإنباج والمنافع الأخر.

وانظر إلى نفسك، وما فيها من العبر العظيمة، وكيف وُضع كل عضو في موضعه اللائق به بحيث لو وضع في غيره لتشوشت الخلقة وفاتت المنفعة، وكذلك جميع الحيوانات بهذا الوصف.

فهل يتصور أن يكون ذلك مصادفة بلا خالق خلقها ولا مبتدع ابتدعها؟

إن تناسب عناصر الحياة، وأنها كلها بوزن ومقدار لو زاد أو نقص لاختلَّت الحياة لأكبر دليل على توحيد الباري وعلى إبطال مذهب الماديين، وأن الذي أوجد الحياة في الأشياء الحية، وجعل من آثارها ما جعل، هو على كل شيء قدير.

ومن نظر إلى الحيوانات الكبار والصغار وإلهام الله لها كل ما تحتاجه وتحيلها على مصالحها وما أعطها من الفطنة والذكاء، والأعمال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان، عرف بذلك أن هذا لا يصدر إلا من إلهام من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

فصل

الإصلاح والصلاح

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، ﴿إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

والآيات في الثناء على الصلاح والإصلاح والأمر به كثيرة، وكذلك في النهي عن الفساد وذم المفسدين في الأرض بعد إصلاحها.

والإصلاح يشمل إصلاح الأمور الدينية والدنيوية، فكل أمر هو صلاح وإصلاح أو يتوسل به إلى ذلك، فهو داخل في هذه النصوص، كما أن ضده الإفساد يدخل فيه النهي عن الشر والفساد والضرر في الدين والدنيا والأعمال كلها، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وغير ذلك.

وحيث أطلق العلم شمل العلوم الشرعية وهي الأصل وهي أشرف العلمين، وشمل العلوم الكونية، فكل علم نافع في الدين أو في الدنيا فهو داخل في مدح العلم وأهله.

فصل

جلال أحكام الشرع وعدالتها

قال الله تعالى في بيان جلال أحكام الشرع وحُسنها وعدالتها ورحمتها:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، إلى غير ذلك من الآيات المفصلة للأحكام الشرعية المأمور بها والمنهي عنها، وبيان أن الله ما أمر إلا بالأوامر النافعة المحتوية على كل خير وبركة ورحمة، ولا نهى إلا عن كل خبيث ضار ليس فيه نفع.

وتتبع أوامر الشريعة من الكتاب والسنة، وتأمل حكمها وحسنها من

أكبر البراهين على أن الدين الإسلامي هو الدين الحق الصحيح، حيث أمر بما هو حسن نافع طيب، ونهى عن ضده.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فَيُكْفَى فَاثْبُتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ٤٥ - ٤٦].

قال في الاقتصاد: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال في الجمع بين مصلحة الدين والدنيا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩ - ١٠]، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فصل

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُفِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَأَنْظِرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿الروم: ٤٨﴾،

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿الْمُرْتَوُونَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرًا وَبَاطِنًا﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ [الجاثية: ١٢]، ﴿وَالْخَيْلِ وَالْإِبْغَالِ وَالْحَمِيرِ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

فهذه الآيات الكرييات، وغيرها مما يشبهها إذا تأملها العبد، وعرف ما دلَّت عليه وما شملته من العلوم الشرعية والكونية وأعمالها، وعرف سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجارية مجرى التفسير لكتاب الله، وتأمل هديه

في جميع شؤون حياته، عرف أنه لا يشدُّ عن دين الإسلام مصلحة من المصالح ومنفعة وخير وصلاح.

وعرف أن القرآن تبيان لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وأن الأمور إذا بُنيت عليه تَمَّتْ مصلحتها، وكل أمر فقد فسد ونقص، والواقع يشهد ذلك.

وقد دلَّت أيضًا هذه الآيات، وغيرها أن العقل الصحيح مؤيد للشرع وشاهد له، وأن من خالف الشرع فقد خالفه بغير عقل صحيح، بل بجهل وضلال، كما قال تعالى عن جميع من حكم عليهم بالخلود في النار ممن عاندوا الشرع أنهم قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

فأخبر أنهم فقدوا السمع وهو الأدلة النقلية، وفقدوا العقل، وكيف يكون له عقل من أشرك بالله الخالق الرازق المدبّر للأمور كلها، المتفرّد بكل كمال، أحدًا من المخلوقين الناقصين من كل وجه.

بل كيف يكون عقل لمن حَجَّه الباري الذي لو شك الإنسان بكل شيء من المحسوسات والمعقولات، لم يكن له أن يستجيز عقله الشك في الله، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وهذا استفهام إنكار متقرر عند كل من له مُسَكَّة من عقل أن الشك في الله حق وجنون ومكابرة، ليس أكبر منها مكابرة.

وقول بعضهم: إذا تعارض العقل والشرع قدّمنا العقل، هذا جهل عظيم بما دلَّت عليه عقول العقلاء، فإن العقل مؤيد للشرع شاهد له، وهل

يظن العاقل أن الشارع الحكيم يحكم بأحكام تخالف العقل الصحيح، فضلاً عن أن يخبر بأخبار ينافيها الواقع؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

ولهذا بينه الله العقول والفطر على المطالب العظيمة والتوحيد والنبوة والمعاد، مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢ - ٢٣].

فنبه العقول على أمر تعرفه ولا تنكره، وهو أن كل ما عُبدَ من دونه ليس له ملك ولا شركة في الملك ولا مظاهره ولا شفاعته، وإذا انتفت هذه الأمور الأربعة، ثبت بطلان عبادة من سوى الله.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حِشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] كما نبه على تفرده بالخلق والربوبية والوحدانية بقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦].

وكما نبه على المعاد بالخلق الأول، وخلق السماوات والأرض التي

هي أكبر من خلق الناس، وبإحياء الله الأرض بعد موتها، وكما برهن على صدق الرسول وما جاء به من القرآن بتحديه الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة، واحتج على الخلق بحسن ما جاء به الرسول من أخباره الصادقة وأحكامه العادلة، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وإن كنت في ريب من ذلك، فلتتبع كل خبر أخبر الله به في كتابه أو أخبر به رسوله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تجدها أعلى درجات الصدق وأنفع ما يكون للعباد، فإن تصديقها واعتقاد مخبرها من أكبر مغذيات الإيمان.

وتأمل ثانيًا: هل في خبر الله وخبر رسوله شيء يخالف الحس والواقع والعقل الصحيح، أم تجده هذه الأمور من أكبر الشواهد على تحقيق خبر الله ورسوله؟!

وتأمل ثالثًا: هل تجدي في أحكام الله ورسوله من الأوامر والنواهي شيئًا ينافي الحكمة والمصلحة للعباد، أم تجدها هي الغاية في كمال الخلق وعلو مراتبهم وتحلُّقهم بالأخلاق الجميلة وتنزُّههم عن الأخلاق الرذيلة؟ فهي التي ترفع أهلها إلى أعلى مراتب الكمال، ولا يكون النقص والضرر إلا بالإخلال بها أو ببعضها، وقد اعترف بذلك الأولياء^(١) وألقى شبهة روجها على الجاهلين بالإسلام.

(١) كذا في الأصل ولعلها (أحد الأدعياء)، أو يكون في الكلام سقط.

وبالواقع متى فعل ذلك في بعض فروع النادرة ظهر كذبه وافتراؤه وظهرت المصلحة للخلق والفوائد الكثيرة في القول الذي دلت عليه شريعة الإسلام؛ لأنها شريعة أحكم الحاكمين، عالم الغيب والشهادة الذي يعلم من مصالح عباده ما لا يعلمون، وشرع لهم ما يصلحهم في كل زمان ومكان في دينهم ودنياهم، وهو الحكيم العليم الرحيم.

فصل

من أدلة القرآن العقلية والنقلية

ومن الأدلة العقلية النقلية الأمثال التي ضربها الله في القرآن، فإنها كلها تنبه العقول وتوضح البراهين العقلية على وحدانية الله وتوحيده، وعلى صدق رسوله وصحة ما جاء به.

فمن زعم أن شيئاً من الأدلة العقلية التي يسلمها العقلاء تخالف ما جاء به محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فهو مغرّبٌ، وليأتِ بمثال واحد ولن يستطيع ذلك، نعم قد يأتي بنظريات وخيالات إذا حققت عقلاً وجدت جهلياتٍ وضلالاً مبيهاً مثل قول كثير من الملحدين: عن العقوبات والحدود التي جاء بها دين الإسلام على الجرائم غير لائقة ولا مناسبة للقوانين، والأحسن عندهم أن يُستبدل بها الحبس والغرامة المالية.

وهذا سفسطة ومكابرة للواقع، فإن القوانين التي يسنها الملحدون ومن قلدهم على الجرائم لم تغن شيئاً، وظهر نقصها وفشلها العظيم، وأنه لا أثر لها في ردع المجرمين، وأن السبب الوحيد لردع كل مجرم تطبيق الحدود الشرعية، والعقوبات الدينية، فهي الكفيلة بردع المجرمين، إذ هي عقوبات ونكال وموعظة لو طبقت في قطر من الأقطار لصلحت أحوالهم، وقلّ الجناة والمجرمون، وحصل الأمن على الدماء والأموال

والأعراض؛ لأنها تشريع من حكيم بأحوال العباد وما يصلحهم ويقيهم الشرور.

ومثل قول كثير من الماديين الملحددين ومن قلدهم تقليدًا أعمى: إنه يجب أن تكون الأفكار حرّة، وإن لكل أحد حرّيته في الرأي الذي يرتئيه والاقترح الذي يُبديه على أيّ حال يكون.

وهذا قد ظهر أيضًا ضرره العظيم، وإن حرية الأفكار وإعطاء كل أحد حرّيته فيها قد تبين أنها السبب الوحيد في الفوضوية، وأنها أعظم من حرية الأفعال، بل هي أصلها، فإنه متى أعطي الناس حرّيتهم فيها انحلت أخلاقهم وعقائدهم، ومرجت أعمالهم وصارت البهائم أحسن حالًا منهم، وهذا هو الواقع في كل قطر أطلقت فيه الحريات، ولم تُقيد بالقيود الشرعية العقلية.

فإنّ النفوس أمّارة بالسوء، وطبيعتها الأشر والبطر، والانطلاق خلف كل شهوة ضرّت الأفراد والجماعات أو لم تضرهم.

فكما أن إطلاق الحريات في الأفعال مطلقًا لا يمكن البقاء معه، فلو ترك لكل أحد حرّيته وأن له أن يقتل أو يجرح أو يضرب أو يأخذ أموال الناس وأعراضهم لفسدت الأحوال واختلت الدنيا ووقع الهرج والمرج والضرر الكبير، فكذاك حريات الأفكار متى أطلقت، أتت بالمنكرات والفظائع الشنيعة، وكان من ثمرتها الخبيثة الاستغناء عن الدين، وعن الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وإنكار ما جاءوا به، وكذلك

إنكار ما دلَّت عليه العقول الصحيحة من وجوب التقيد والتحرز عن الأمور الضارة في الاعتقادات والأخلاق والأعمال.

ومن جرّاء حريات الأفكار ما تسمعه في الصحف الإحادية والصحف الخليعة من المقالات التي تقشعُرُ منها قلوب العقلاء وقد ضرت ضرراً كبيراً في العقائد والأخلاق، بل ضرت الحكومات والجماعات والأفراد.

أما شريعة الإسلام، فإنها - والله الحمد - جاءت بتنبية العقول والحث على التفكر في الأمور التي ينفع التفكير فيها، كآيات الله المخلوقة وآياته المتلوة، وسلكت في تفكرها ونظرها المسالك الصحيحة، فأقرت العلوم النافعة والمعارف الصادقة والحث على كل خُلُق جميل والحد عن كل خُلُق رذيل، وجعلت للأفكار حدّاً صحيحاً، إن تجاوزته وقعت في المهالك وأنواع الضلالات.

فالأفكار إن لم تقيدها العقول الصحيحة والدين الصحيح الذي وضعه الله للعباد فيه صلاح شؤونهم - وكمال أحوالهم - فإنها تحدث الفوضى والخطأ والضلال والشقاء والحمق والجنون.

وكذلك ما افتراه كثير من أعداء الإسلام والمنافقين، أن الإيمان بقضاء الله وقدره يحدث الفتور والاستسلام وعدم الحركة، وهذا الزعم منهم افتراء ظاهر وكذب صريح، فإن الدين الإسلامي قد أمر بأصلين عظيمين لا تتم الأمور كلها إلا باجتماعهما:

أحدهما: الإيمان بقضاء الله وقدره، وأن الأمور كلها والأسباب مربوطة بالقضاء والقدر وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الأصل الثاني: الأمر بالأعمال النافعة في الدين والدنيا، والبعد عن الأسباب الضارة.

وكل واحد من الأصلين يمدُّ الآخر، فالإيمان بالقضاء والقدر يمدُّ العاملين وينشطهم ويوجب لهم اقتحام الأمور الصعبة اتكالا على الله واستمدادا من حوله وقوته، ويُزيل من قلوبهم خوف المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، والسعي والعمل هو من قضاء الله وقدره، فإنه أخبر أنه يوجد الأشياء بأسبابها؛ ولهذا يجمع الله بين الأصلين في مواضع كثيرة من كتابه مثل قوله: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿التكوير: ٢٨ - ٢٩﴾، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿المدرثر: ٥٤ - ٥٦﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿الليل: ٥ - ١٠﴾، فأمر بالأعمال ورغب فيها ووعد التيسير لليسرى لمن قام بالأسباب النافعة، والتيسير للعسرى لمن ترك الأسباب النافعة.

وثبت عنه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أنه قال: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»، وهذا شامل للحرص على الأمور النافعة في الدين والدنيا، فعلم أن دين الإسلام يكذب ما افتراه عليه أعداؤه من أنه مثبِّط مخدِّر،

وإنما هو منشط وحاتٌ على كل عمل نافع.

وأن الإيمان بالقدر من أعظم المنشطات لكل عمل نافع وأعظم المسهلات لها، ولهذا قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له؛ أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة»، وتلا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** عند ذلك هذه الآية: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْتَفَى** ﴿٥﴾ **وَصَدَقَ بِالْحَسَنَى** ﴿٦﴾ **فَسَنِيْرَهُ لِلْيُسْرَى** ﴾ ... الآيات.

ولهذا كان الدين الإسلامي يعتبر من يترك العمل اتكالا على القدر أحق مجنوناً، وينكر على المشركين الذين يحتجون على تركهم العمل بالأسباب النافعة بالقدر والمشية، ويخبر أن الاحتجاج بذلك دأب الأمم الطاغية الذين عوقبوا بأنواع المثلات، فما من عمل نافع دقيق أو جليل إلا حثَّ الشارع عليه وعلى وسائله ومكملاته، ولا عملٍ ضارٍ وكسلٍ وتقاعدٍ إلا حذر منه غاية التحذير، ونصوص الشرع في هذا الأصل لا تُعد ولا تُحصى، ومن أنكر ذلك فهو مكابر مباحته وهو من أعظم الناس ضلالاً.

فصل

العلوم المخالفة للدين

ومما رَوَّج به الملحدون باطلهم وعلومهم المخالفة للدين أنهم زخرفوا لها العبارات فسموها تجديدًا ورقياً وتقدمًا، ونحوها من الأسماء التي يغرِّرون بها من لا بصيرة عنده، وتسميتهم للحق الذي جاء به الرسول محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمودًا ورجعية وتخديرًا ورجوعًا إلى الوراء، كما قال تعالى عن أسلافهم: ﴿وَكذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَلِنَصِّغِيَ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

فأخبر تعالى أن هذا دأب أعداء الرسل في كل زمان، وأنهم يزخرفون العبارات؛ لتحسين باطلهم، وتقبيح ما جاءت به الرسل، وأنهم يتواصون بذلك ويفترون على الله الكذب، وأنه يغترُّ به من لا علم له ولا بصيرة ولا إيمان، فهؤلاء أخذوا كل ما افتراه الأولون من أسلافهم المكذبين، وزادوا زياداتٍ كم اصطادوا بها ضعفاء البصائر، وليس ما جاء به الرسول جحودًا ولا رجوعًا إلى الوراء، وإنما هو الحق والنور والحياة والرشد الذي لا حياة للوجود، ولا للقلوب ولا للعقول إلا به، ولا نور إلا باقتباس نوره، وهو الموقظ للهمم والعزائم إلى كل خصلة

حميدة، وإلى كل رقيٍّ صحيحٍ وتقدُّمٍ نافعٍ.

فإن من أصول الشريعة الكبرى وجوب العمل بالأسباب النافعة مقاصدها ووسائلها، والحث على كل عمل صالح ومصلحة، والاستعانة بالله في تحقيق ذلك مع بذل الجهد.

ومن المعلوم أن من تحقق بهذين الأصلين، بذل المجهود في كل أمر نافع، والاستعانة بالمعبود، فإنه لا يزال في تقدم ورقيٍّ مطرد في إصلاح الدين وفي إصلاح الدنيا المعينة على الدين، كما قال **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله...».

وكم في كتاب الله وسنة الرسول من الأمر بكل عمل نافع والحث على التقدم الصحيح النافع للأفراد والجماعات والشعب والحكومات، وأما العلوم المادية الخالية من روح الدين ورحمته، فإنها تقدم إلى الهلاك والدمار، وتقدم إلى هدم كل خُلقٍ جميل والاتصاف بكل خُلقٍ رذيل، والمشاهدة والحسُّ أكبر شاهد على ذلك، فإنه محال أن يحصل التقدم الصحيح إلا إذا صحبه الدين الصحيح الملازم للحقِّ، فإن الباطل - وإن كان له نوع صولة - فعاقبته الزوال والاضمحلال، ومنتهاه الخسارة والهلاك.

فعند هؤلاء الملحدین أن التجديد والرقي هو الاندماج في معنوية الأجانب، أعداء الأديان كلها، وزوال شخصياتهم في شخصيات أولئك، والتشبه بهم في أخلاقهم ولباسهم وحركاتهم وعوائدهم الدقيقة والجليلة، فيرون الانسلاخ من دين الله الذي هو الحقُّ ومن أخلاقه الجميلة هو التقدم

والرقي، استبدلوا الأدنى الخسيس بالأعلى الكامل النفيس، وصاروا مع أعدائهم في ظاهرهم وباطنهم، وكانوا بذلك أكبر سلاح للأعداء على دينهم وقومهم، ولهذا كانوا يقلدون الأجانب في الأمور الضارة، وأما ما عندهم من الأمور التي تنفع إذا انضم إليها الدين فهم أبعد الناس عنها، كما هو معروف من أحوالهم.

فصل

من ترويح المنحرفين عن الحق

ومما يروِّج به المنحرفون باطلهم: لهجهم الشديد بالثقافة العصرية زاعمين أن الأخلاق لا تتهدَّب ولا تتعدل إلا بها، ويطنون في مدحها ومدح المثقفين فيها وفي ذمِّ من لم تكن له هذه الثقافة والسخرية منهم، وهم يفسرونها تفاسير متباينة منحرفة، كلُّ يتكلم بما يخطر له؛ لأن العلوم إذا كانت فوضى والأخلاق تتبعها هكذا، يكون أهلها لا يتفقون في آرائهم ونظرياتهم على شيء.

وكل أقوالهم ترجع إلى هبوط الدين والأخلاق، وإنما الثقافة الصحيحة والتهذيب النافع هو ما جاء به الدين الإسلامي الذي هدَّب العقائد عن الشرك والوثنيات، وهدَّب الأخلاق عن كل خُلُق رذيل، وهدَّب الأعمال والآداب حتى استقامت بها الأمور، وصلحت بها الأحوال، وجمعت بين الدين والدنيا، وبين تقويم المعنويات النافعة والماديات المعينة عليها.

وذلك أن المشاهدة شاهدة بما ذكرنا، فإن العلوم العصرية والمخترعات مع توسعها وتبحُّرها حيث كانت خالية من الدين، عجزت كل العجز عن إصلاح الأخلاق واكتسابها للفضائل الصحيحة، وعن ترفعها عن الرذائل، وإنما الذي يتكفَّل بهذا الإصلاح ويتولى هذا التهذيب النافع، ويوجه إلى كل خير ويزجر عن كل شر هو دين الإسلام، فإنه مُصلح

للظاهر والباطن، لأمر الدين والدنيا، ومن نظر إلى أصوله وفروعه وإلى ما دعا إليه وحثَّ عليه، وإلى ما زجر عنه، وجد الأمر كما ذكرنا، بل فوق ذلك، والله الموفق.

ولا تنظر إلى من تسمَّى بالإسلام، ونبذ أخلاقه وراء ظهره وتحتج به على الإسلام والمسلمين في ضعته وجموده وهبوط أخلاقه.

فإن الإسلام برئ ممن هذه حاله، وإن تسمَّى بالإسلام، فليس له منه إلا رسمه، فإن دين الإسلام دين الرفعة والرقي الصحيح، فتعاليمه وإرشاداته وأخلاقه وأعماله كلها في غاية الأحكام والانتظام في وسائلها ومقاصدها، وهي الغاية في توجيه المتصفيين بها إلى كل خير وصلاح وإصلاح، كما هو معروف من حال أول هذه الأمة القائمين بها حقيقة، الذين ملأوا الدنيا عدلاً ورحمةً وصلاً وإصلاحاً للأحوال كلها، وبهم يُضرب المثل في الكمال الإنساني، فمن أراد أن يعرف آثار الدين فليتنظر إلى أمثال هؤلاء، وأما من أراد المكابرة والتغريب، فله نظر آخر.

فصل

قول بعض الناس: هذا وقت العلم والمعارف

يقول كثير من الناس: هذا وقت العلم والمعارف والرقى، ومقصودهم بهذا الإعراض عن الماضي وعن علوم الدين والتزهيد فيها، وقد صدقوا من جهة، وكذبوا من جهات أُخر.

قد صدقوا أنه وقت ترقّت فيه علوم الصناعات والمخترعات وما يرجع إلى الماديات والطبيعات، وقد كذبوا أفضح الكذب حيث حصروا العلم بهذا النوع ولم يعلموا أن العلم الحقيقي النافع هو العلم بما جاء به الكتاب والسنة، الكفيل بكل خير ديني ودنيوي وأخروي.

والعلم النافع من علوم الصناعات والمخترعات داخل في ضمن هذا، بل العلم الديني هو الذي يصير العلوم الطبيعية والصناعية نافعة نفعًا صحيحًا، وهو الذي يوجّهها إلى نفع النوع الإنساني، ويمنعها من التهور المهلك؛ ولهذا نقول: وقد كذبوا أيضًا من جهة أن هذه العلوم التي افتخروا بها لم يوجهوها التوجيه النافع، بل استعملوها فيما يضرُّ الخلق في الإهلاك والإفناء والتدمير، فهي من أعظم النعم، ولكنها باستعمالهم إياها كانت من أكبر النكبات والنقم.

وهذا من المعلوم الذي لا ريب فيه أن الشيء الذي لا يتولى الدين الصحيح توجيهه، فهو منعكس، ضرره أكبر من نفعه.

وقد صدقوا أنه زمانُ ترقّي الماديات الجافة، وقد كذبوا في إطلاقهم الترقّي، فيظنّ الظانُّ أنه ترقُّ في كل شيء، إنما هو ترقُّ في الصناعات والمخترعات لا في الأخلاق الفاضلة والديانات، فلا ينفع الترقّي في الماديات إذا هبطت الأخلاق التي عليها المدار في كلِّ شيء، وهي التي تُصلح الأشياء ولا تصلح الأمور بدونها، كما هو مشاهد محسوس، فأَيُّ ترقُّ صيرَّ أهله بمنزلة السُّباع الضارية، دأبها الظلم والفتك والاستعمار للأمم الضعيفة وسلبها حقوقها؟

فالترقّي الصحيح الذي هو من آثار الدين من آثاره العدل والرحمة والوفاء بالحقوق، والحثُّ على كل خير والتحذير من كل شر، هذا هو الترقّي الذي لم يشمُّوا له رائحة ولا خطر بقلوبهم، وكيف يخطر بقلوبهم وقلوبهم ملاءى بالهلع والجشع والزهو والكبر والغرور ومن كل خُلُق رذيل؟!

وقد كذبوا أيضًا في زعمهم أن العلوم العصرية والفنون الاختراعية النافعة هم الذين ابتدأوها، وأن الشريعة الإسلامية لم تهد إليها ولم ترشد إلى أصولها، وهذا بهتان عظيم ومكابرة يعرفها من له أدنى نظر في الدين الإسلامي، وكيف أصّل للعباد أصولاً عظيمة نافعة، بها صلاح دنياهم، كما أصّل لهم أصولاً نافعة فيها صلاح دينهم.

وقد ذكرنا بعض النصوص من الكتاب والسنة الدالة على هذا الأصل كما سبقت الإشارة إليه، نعم لو قالوا: إن الناس في هذا الوقت انتفعوا بهذه الأصول والتعاليم الدينية في ترقية الصناعات وابتكار المخترعات ومعرفة طرق الاقتصاديات وما أشبه ذلك، ولكنهم رقوها ترقية مبتورة مقطوعة الصلة بالله وبدين الله، فلهذا نفعت من جهة وضررت من جهات. نفعت بما اشتملت عليه من منافع العباد الدنيوية، ونفعت من استعان بها على الدين والخير.

وضررت من جهة أنها سببت لأهلها الوحشية والهمجية اللتين من آثارهما الإهلاك والتدمير والشور التي لم يوجد لها نظير فيما سبق، وضررت أيضاً من جهة ما أحدثت في نفوس أهلها من الزهو والغرور والكبرياء واستعباد الضعفاء وظلمهم وهضم الحقوق، والشور المتنوعة.

فلو أن هذه المخترعات تولّى الدين توجيهها لحصل فيها من المنافع أضعاف أضعاف ما شُهد، ولاندفعت مضارها وشورها، وكانت مبنية على الخير والصلاح، وكان من آثارها الخير والإصلاح للدين والدنيا، ولكن لله في خلقه شؤون.

فصل

أعظم آفات العلم

أعظم آفات العلم وقواطعه الانخداع بالوقوف مع المخلوقات دون خالقها، وبالأثار عن مؤثرها، وبالأسباب عن مسببها، وبالوسائل عن مقاصدها، وهذا النوع نقصه كثير وضرره كبير، فإن كثيراً من الملحدين والمغترين بهم يمهرّون في العلوم الطبيعية، ولكنهم يقفون معها ويعمون عن ارتباطها بخالقها ومسببها، والذي أودع فيها من العجائب والأسرار ما أودع، فيرون أنفسهم قد عرفوا من عجائب علوم الطبيعة ما لم يعرف غيرهم.

ومن الأسرار التي أودعها الله في الطبائع ما زادوا به على غيرهم، فيأخذهم الزهو والغرور ويقفون معها ويرونها هي الحاصل وهي المقصود وهي الغاية، فيحصل الانحراف العظيم، والنقص في العلم والعقل.

فلو أنهم عرفوا وأثبتوا الموجد الحقيقي والمدبّر للأمر كلها، وربطوا الأسباب بقضائه وقدره، وعلموا أن الأسباب محل حكمته، فإنه تعالى حكيم يضع الأمور مواضعها، ويجعل الأمور الدقيقة والجليلة منتظمة بنظام عجيب وارتباط وثيق، وجعل لكل مطلوب ومقصود سبباً ووسيلة وطريقاً يوصل إليه، ولذلك نتيجة وثمره بحسب قوة الأسباب وضعفها

وبحسب قوة العامل بها وضعفه، ثم ربطوا هذه الأسباب والوسائل والنتائج بقدر الله وقضائه، لو أنهم فعلوا ذلك في عملهم لتّم علمهم، وحصل لهم من اليقين ما لا يحصل لمن لم يصل إلى ما وصلوا إليه.

ولكنهم فرحوا بما عرفوه من الوسائل التي يعرفون نتائجها الدنيوية ملموسة وتكبروا بها، فانطبق عليهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْعَادًا فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْعَادُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وهذا أعظم آفات العجب والكبر على الإطلاق، وأعظم الطرق التي اغتر بها، وانخدع كثير من الخلق.

فنسأل الله أن يرزقنا العلم الصحيح المؤيد بالعقل والنقل والفطرة، وهو العلم النافع الذي يعرفه العبد من جميع نواحيه، وهو العلم الذي يربط الفروع بأصولها، ويردّ الأسباب وآثارها ونتائجها إلى مسببها وإلى الذي جعلها كذلك، وهو العلم الذي لا ينقطع صاحبه بالمخلوق عن خالقه، وبالأثار عن مؤثرها، وبالحكم والأسرار والنظامات العجيبة عن محكمها ومنظمها ومبدعها.

وهذا العلم هو الذي يثمر اليقين وتحصل به الطمأنينة وتتم به السعادة والفلاح، ويثمر الأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة المصلحة للدين والدنيا.

أما علوم المنحرفين، فإنها كما ذكرنا مقطوعة مبتورة جافة، نهاية نفعها كنفع الصناعات المادية، كما هو مشاهد محسوس، لا تثمر إيماناً ولا أمانة ولا رحمة ولا أخلاقاً جميلة، بل ثمراتها ضد ذلك، يؤسف غاية الأسف لكل ذي عقل كبير وذكاء مفرط أن تكون هي غايته وثمراته.

فإن العقل الصحيح فهّم الأشياء والإحاطة بها من جميع نواحيها، ثم العمل بالأمور النافعة، واستغلال الخيرات والمواهب التي وهبها العبد والجمع بين مصالح الدارين ومنافع البدن والروح، والنظر الصحيح للمبادئ والعواقب، وربط الأمور المتصلة بعضها ببعض، فكل من لم يتصف بهذه الأوصاف، نقص من عقله بحسب ذلك، فكيف بدينه؟!!

فصل

من علامات المنحرفين في أديانهم وعقولهم

ومن علامات المنحرفين في أديانهم وعقولهم، اغترارهم بأرائهم وعقولهم السخيفة، واحتقارهم لعقول صفوة الخلق وخلاصتهم من الأنبياء وأتباعهم وأهل الهدى، وبهذا تعرف مكابرتهم ومبالغتهم وإنكارهم ما لا يمكن إنكاره، وجحدهم فضل من قبلهم؛ ليتوصلوا بذلك إلى ردِّ الحقِّ، وليصدوا العباد عن دين الله وسبيله.

فيعبرون عن الحقائق التي جاءت بها الرسل يقولون: هذا عقل قديم، هذا رأي عتيق، هذا أساطير الأولين، كما قابلت الرسل أعداؤهم بهذه الأقوال الخبيثة الساقطة، وقد اغترَّ بأقوالهم هذه كثير من النشأة والشبيبة الذين لا بصيرة لهم، ولا عقول ناضجة.

أما علموا أن العقول لا تكمل، ولا تزكوا إلا بالوحي والقرآن، ولا تكون عقولاً نافعة حتى تغتذي بالهدى واليقين الذي جاء به الرسول؟! قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى** ﴾ [طه: ٥٤]، ﴿ **لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وهم أهل العقول الوافية والآراء السديدة، والأخلاق الزاكية.

فهل يوجد عقول صحيحة تقارب عقل النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** الذي لم تستنر العقول والآراء إلا بعقله ورأيه وعلمه وتعليمه وإرشاده، فحسب

العقول الكاملة أن تستمد من عقله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وآرائه وهداه ورشده، وتغتذي بنوره وتوجيهه وإرشاده؛ قال تعالى: ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤** ﴾ [النجم: ١ - ٤]، وهذا وصف للنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بكمال العلم والهدى وكمال الرشده وكمال العصمة في أقواله وأفعاله، وبذلك يعلم أن كل ما خالف هديه ورشده وإرشاده فهو ضلال وغيي وسفاهة وشر وهلاك، والواقع أكبر شاهد على ذلك.

فهل حصل لأحد مثقال ذرة من الخير الظاهر والباطن ومن الثمرات النافعة الجليلة إلا على يده وبتعليمه صلوات الله وسلامه عليه؟ وهل اهتدى أحد إلا بامثال أمره واجتناب نهيه؟ وهل صلح شيء من أمور الدين والدنيا صلاحًا لا فساد معه إلا بالمشي خلفه واتباعه في أصول الدين وفروعه، وفي الوسائل والمقاصد؟ فلا خير وهدى ورحمة وصلاح وإصلاح للظاهر والباطن إلا دَلَّ الخلق وأرشدهم إلى مسالكه، ولا شر وضرر إلا حذرهم منه.

قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣].

فمن كماله أنه هدى للتي هي أقوم في عقائده وأخلاقه وأعماله، فكملت به العقائد والأخلاق والأعمال، فلا يعتريه النقص بوجه من الوجوه.

ومن كماله أنه صالح لكل زمان ومكان، وحال لجميع المشاكل الاجتماعية والشخصية.

ومن كماله أن جميع الحقائق العقلية والحسيّة، والتجارب الصادقة كلها داخلة فيه، وفي ضمنه.

ومن كماله أن النظريات المتباينة والاختلافات المتضادة بين صحيحها من سقيمها، وصالحها من فاسدها، وعدلها من ظلمها، وحقها من باطلها.

ومن كماله أنه كملت به العقول، واستنارت به الآراء، واستمدت من هدايته ما أصلحت به دينها ودنياها، فكل خير ديني ودنيوي وظاهر وباطن من نتائجه وثمراته، ولذلك تمتّ به النعمة على المؤمنين، وحصل به الخير المنوع على جميع العالمين.

والحمد لله الذي تفضل به على العباد، وجعله هدى ورحمة في مصالح المعاش والمعاد، وصلّى الله على محمد، وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليماً.

كتبه الفقير إلى الله

عبد الرحمن الناصر بن سعدي.

في ١٠ محرم سنة ١٣٧٥هـ.

البراهين العقلية
على وحدانية الرب ووجوه كماله

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

بمراعاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وصلى الله على محمد وسلم. هذه محاضرة عظيمة محتوية على التنبيه الواضح إلى البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله. اعلم أن هذه المسألة أعظم المسائل على الإطلاق، وأكبرها، وأوجبها، وأنفعها، وأوضحها، وعليها اتفقت جميع الكتب المنزلة من الله على رسله، وجميع الرسل.

وهي أهم ما دعا إليه الرسل أمهم، فكل رسول يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ويذكرون لأمرهم من أسماء الرب، وأوصافه، ونعمه وآلائه وأطافه، ما به يعرفون ربهم ويخضعون له ويعبدونه.

والقرآن العظيم من أوله إلى آخره يبين هذه المسألة، ويذكر لها البراهين المتنوعة، ويصرف لها الآيات، والسنة كذلك.

وليس القصد في هذه المحاضرة ذكر الأدلة النقلية عليها؛ فإن الكتاب والسنة فيهما من البراهين والأدلة على ذلك ما لا يعد ولا يحصى، ولا يمكن استيفاء بعضه، وهي واضحة جلية؛ يعرفها الخواص والعوام، وبعض ذلك كافٍ وافٍ بالمقصود.

ولكننا نريد في هذه المحاضرة أن نشير إشارةً يسيرةً إلى براهينها العقلية التي يشترك في معرفتها والخضوع لها جميع العقلاء من البشر، ولا ينكرها إلا كل مكابر مستكبر، منابذ للعقل والدين.

وهذه المسألة أوضح وأظهر من أن يُتَجَبَّ لها وتُذَكَّر براهينها، ولكن كلما عرف المؤمن براهينها قوي إيمانه، وازداد يقينه، وحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر النعم وأجلها.

ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فاستفهموهم استفهام تقرير؛ فإنه متقررٌ في قلوب جميع العقلاء الاعتراف بربوبيته ووحدانيته.

فقول وبالله التوفيق:

حدوث الأشياء له ثلاثة أقسام عقلية

اعلم - رحمك الله - أنك إذا نظرت إلى العالم العلوي والسفلي، وما أُودِع فيه من المخلوقات المتنوعة الكثيرة جداً، والحوادث المتجددة في كل وقت، وتأملته تأملاً صحيحاً، عرفت أن الأمور - الممكن تقسيمها - في العقل ثلاثة:

أحدها: أن توجد هذه المخلوقات والحوادث بنفسها من غير محدث ولا خالق، فهذا محالٌ ممتنعٌ يجزم العقل ضرورةً ببطلانه، ويعلم يقيناً أن من ظن ذلك فهو إلى الجنون أقرب منه إلى العقل؛ لأن كل من له عقل يعرف أنه لا يمكن أن يوجد شيء من غير موجد ولا محدث.

الثاني: أن تكون هذه المخلوقات محدثةً وخالقةً نفسها، فهذا أيضاً محالٌ ممتنعٌ، يجزم العقل ضرورةً ببطلانه وامتناعه، فكل من له أدنى عقل يجزم

أن الشيء لا يحدث نفسه، كما أنه لا يحدث بلا محدث، وإذا بطل هذان القسمان عقلاً وفطرةً تعين القسم:

الثالث: وهو أن هذه المخلوقات والحوادث لها خالقٌ خلقها، ومحدثٌ أحدثها، وهو الله الرب العظيم، الخالق لكل شيء، المتصرف في كل شيء، المدبر للأمور كلها.

ولهذا نبه الله على هذا التقسيم العقلي الواضح لكل عاقل، فقال: ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿[الطور: ٣٥ - ٣٦].

فالمخلوق لا بد له من خالق، والأثر لا بد له من مؤثر، والمحدث لا بد له من محدث، والموجد لا بد له من موجد، والمصنوع لا بد له من صانع، والمفعول لا بد له من فاعل.

هذه قضايا بديهية عقلية، يشترك في العلم بها جميع العقلاء، وهي من أعظم القضايا العقلية، فمن ارتاب فيها أو شك في دلالتها فقد برهن على اختلال عقله وضلاله.

من الأدلة

التفكر في خلق الإنسان والأكوان

تفكّر - رحمك الله - في نفسك، وانظر في مبدأ خلقك، من نُطفة إلى علقة إلى مضغة، حتى صرت بشراً كامل الخلق، مكتمل الأعضاء الظاهرة والباطنة، أما يضطرك هذا النظر ويلجئك إلى الاعتراف بالرب القادر على كل شيء، الذي أحاط علمه بكل شيء، الحكيم في كل ما خلقه وصنعه؟ فلو اجتمع الخلق كلهم على هذه النطفة - التي جعلها الله مبدأ خلقك - على أن ينقلوها في تلك الأطوار المتنوعة، ويحفظوها في ذلك القرار المكين، ويجعلوها أعضاء ظاهرة وقوى باطنة، وسمعاً وبصراً وعقلاً، وينموها هذه التنمية العجيبة، ويركّبوها هذا التركيب المنظم، ويرتبوا الأعضاء على هذا الترتيب المحكم بحيث يكون كل عضوٍ في محله اللائق به، لو اجتمعوا على ذلك، فهل في علومهم وهل في اقتدارهم واستطاعتهم الوصول إلى ذلك؟

فهذا النظرُ السديد يوصلك إلى الاعتراف بقدرة الله وعظمته ووحدانيته، والخضوع له، والتصديق بكتبه، ورساله، ومعرفته، والإيمان باليوم الآخر.

تأمل في حفظ الله للسّموات والأرض، وما فيها من العوالم التي لا

يعلمها إلا هو، وفي إبقائها وإمدادها بكل ما تحتاج إليه في بقائها من الأسباب المتنوعة، والنظامات العجيبة، أما يدلك ذلك على كمال الرب وربوبيته ووحدانيته وسعة علمه وشمول حكمته؟

وقد نبّه الله على هذا الدليل الواضح العقلي بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

تدبر - يا أخي - في هذا الفلك الدوّار، وما ترتب عليه من تعاقب الليل والنهار، وفي تصريف الأوقات بفصولها وكمال انتظامها لمصالح العباد ومنافعهم التي لا يمكن إحصاؤها.

هل حصل ذلك صدفةً واتفاقاً من غير محدث وفاعل؟ أم الذي خلق ذلك ودبره هذا التدبير المتقن هو الذي أحسن كلّ شيء خلقه؟ كما نبّه على ذلك البرهان العقلي بقوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وانظر - هداك الله - إلى أنه أعطى كلّ شيء خلقه اللائق به، ثمّ هدى كلّ مخلوق إلى مصالحه ومنافعه وضروراته التي لا بد فيها من بقائه، حتى البهائم العجم صغيرها وكبيرها، قد ألهمها وهداها لكل أمر فيه نفعها وبقاؤها، ويسّر لها أرزاقها وأقواتها، وهداها لتناولها.

فمن نظر في هذه الهداية العامة، وبثّها في جميع المخلوقات، وإلهامها هذا

الإلهام العجيب - الذي تهتدي به إلى مصالحتها - : علم بذلك عناية المولى العظيمة، وعلم أنه الرب لكل مريبوب، الخالق لكل مخلوق، الرازق لكل مرزوق، الذي علّم المخلوقات، وأعطاهما من الأذهان ما يصلحها ويدفع عنها المضار، وذلك برهانٌ عقليٌّ واضحٌ عظيمٌ على وحدانية الله وكمالهِ.

وقد نبّه الله على ذلك بقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ

هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

فهل في طبيعة الحيوانات المتنوعة هذه الهداية وهذا الإلهام إلى تحصيل منافعها ودفع مضارها، والحنوّ على أولادها، وقيامها بهم، حتى يدرجوا ويستقلوا بأنفسهم؟

وهل هذا الحنانُ والرحمةُ الموضوعَةُ في الحيوانات على أولادها إلا من أكبر الأدلة على سعة رحمة الله وشمول علمه وحكمته؟

من الأدلة

رحمة الله العامة

ثم انظر - رحمك الله - إلى سعة رحمة الله التي ملأت أقطار العالم، وشملت كل مخلوق في كل أحواله وأوقاته.

فبرحمته أوجد المخلوقات، وبرحمته أبقاها وحفظها، وبرحمته أمدّها بكل ما تحتاج إليه، وأسبغ عليها النعم الظاهرة والباطنة، التي لا يمكن أن يخلو مخلوقٌ منها طرفة عين، وهي متنوعة عليه من كل وجه:

نعمّ التعليم لأمر الدين والدنيا، ونعم العافية للأبدان عمومًا، ولكل عضو وقوة على وجه الخصوص، ونعم الأولاد والأهل والأتباع، ونعم الأرزاق الواسعة، ونعم الحروث والزرورع والشمار، ونعم المواشي وأصناف الأمتعة، ونعم الدور والقصور، ونعم اللذات والحبور.

النعم التي فيها جلب المنافع كلها، والنعم التي فيها دفع المضار.

كل ذلك يدل أكبر دلالة على وحدانية مولياها ومسديها والمتفضل بها، وعلى سعة كرمه، ووجوب شكره والخضوع له، وإخلاص العمل له، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تُشْرِكُوا بِهَا إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِنَّهٗ يُجْرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

من الأدلة

النظر في أحوال المضطرين

ثم انظر أحوال المضطرين الواقعين في المهالك، والمشرفين على الأخطار، والبائسين من فقرهم المدقع، أو مرضهم المُوْجِع، وكيف تضطربهم الضرورات وتُلجئهم الحاجات إلى ربهم وإلهم؛ داعين مفتقرين وسائلين له مستعطين، فيجيب دعواتهم ويكشف كرباتهم، ويرفع ضروراتهم.

أليس في هذا أكبر برهانٍ على وحدانيته، وسعة علمه ورحمته، ودقيق لطفه، وأنه ملجأ الخليفة كلها؟ وقد نبّه الله على هذا البرهان العقلي بقوله:

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم مَخْرَجًا مِنَ الْأَرْضِ إِذْ أَتَاكُمْ مِنْهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿ تَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣]، ﴿ لَئِنْ أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [٢٢] ﴿ فَلَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [يونس: ٢٢ - ٢٣].

وهذا النوع - وهو تخليص المضطرين - قد شاهدته الخليفة بأعينهم، ورأوا من الوقائع ما لا يعد ولا يحصى، وهذا يضطربهم إلى الاعتراف بالله وبوحدانيته.

فانظر إلى حالة المضطرين إذا كَرَبَتْهم الشدائد وأزعجتهم النوائب، كيف تجرد قلوبهم متعلقة بالله، وألستهم ملحةً في سؤاله، وأفئدتهم متشرفةً

لنواله، لا تلتفت عن الله يميناً ولا يسرة؛ لعلمها الضروريّ أنه وحده
كاشف الشدائد، فارحُ الكروب، لا ملجأً للخليقة إلا إليه، ولا معول لهم
إلا عليه؟

فهل هذه الأمور إلا لأن الخليقة مفطورةٌ على الاعتراف بوحدانية ربها،
وأنة النافع الضارُّ، وأن ملكوتَ كلِّ شيء بيديه؟ وهل ينكر ذلك إلا من
فَسَدت فطرته بالعقائد الفاسدة والإرادات السيئة؟

وانظر إلى فقر الخلائق إلى ربهم في كلِّ شيء، فهم فقراءٌ إليه في الخلق
والإيجاد، وفقراءٌ إليه في البقاء والرزق والإمداد، وفقراءٌ إليه في جلب
جميع المنافع، وفقراءٌ إليه في دفع المضار.

فهم يسألونه بلسان المقال ولسان الحال، فيعطيههم مطالبهم، ويسعفهم
في كلِّ ما ربههم، إن رغبوا لم يرغبوا إلا إليه، وإن مستهم الضراء لم يلجأوا
إلا إليه.

فكم كشف الضرّ والكروب، وكم جبر الكسيرَ ويسرَ المطلوب، وكم
أغاث ملهوفاً، وكم أنقذ هالِكًا، ففقرهم إليه في جميع الأحوال ظاهر
مشاهد، وغناه عنهم لا ينكره إلا كلُّ مكابر وجاحد.

من الأدلة إجابة الله للدعوات

ومن براهين ربوبيته ووحدانيته: إجابته للدعوات في كل الأوقات، فلا يحصي الخلق ما يعطيه السائلين، وما يجيبُ به أدعية الداعين من برِّ وفاجر، ومسلمٍ وكافر.

تحصل للعباد المطالبُ الكثيرة، ولا يعرفون لها شيئاً من الأسباب سوى الدعاء، والطمع في فضل الله والرجاء لرحمته.

هذا برهانٌ مشاهدٌ في كل الأوقات، لا ينكره إلا مُباهت جاحد.

يدعونه في مطالب دينهم فيجيبهم، وفي مطالب دنياهم فيجيبهم:

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ (٢٠٠) ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢٠١) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾

[البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢].

من الأدلة آيات الأنبياء

ومن براهين وجود الله ووحدانيته: ما يجريه الله على أيدي أنبيائه من خوارق الآيات والمعجزات والبراهين القاطعات، وما يكرمهم به في الدنيا وينصرهم، ويجعل لهم العواقب الحميدة، ويخذل أعداءهم ويعذبهم بأصناف العذاب.

وهذا متواترٌ معروفٌ بين الخواص والعوام، وقد نقلتها الأمم والقرون والأجيال، وصارت أعظم من برهان الشمس والقمر، وهي كلها براهين على ربوبية من أرسلهم، ووحدانيته، وعظمة سلطانه، وكمال قدرته، وسعة علمه وحكمته، وما ينكرها إلا كل متكبر جبار.

من الأدلة
الكتب السماوية والسنة النبوية
وما فيها من الشرائع

ومن أعظم براهين وحدانيته: ما أنزل الله على أنبيائه عموماً من الكتب والشرائع، وما أنزله على محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، خصوصاً من الكتاب العظيم والسنة والشريعة الكاملة التي بها صلاح الخلق، وبها قوام دينهم ودنياهم.

وفيهما من الآيات والبراهين ما لا يعبر عنه المعبرون، ولا يقدر أن يصفه الواصفون، وآياته قائمة في جميع الأوقات، متحدية للخلق كلهم على اختلاف مللهم ونحلهم، وقد تبين عجزهم ووضح عليهم: ﴿سَأْتِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فمن نظر فيما احتوى عليه القرآن العظيم من الأخبار الصادقة، والأحكام العادلة، والشرائع المحكمة، والصلاح العام، وجلب المنافع الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما، والخير العظيم والهداية، والصلاح المطلق الكامل، اضطر إلى الاعتراف بأنه تنزيل من حكيم حميد، ورب كريم.

وكذلك من نظر إلى ما جاء به الرسول **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من السنة والشرع الكامل، والدين القويم والصراط المستقيم في كل شؤونه، اضطره بعض ذلك - فكيف بكله - إلى الاعتراف بوحدانية الله، وأن الذي شرعه هو الربُّ العظيم الحكيم في شرعه ودينه؛ كما هو حكيم في خلقه وتقديره.

من الأدلة الفطرة السوية مضطرةٌ إلى الاعتراف بالله

ومن براهين وحدانية الله: أن العقول والفطر مضطرةٌ إلى الاعتراف ببارئها، وكمال قدرته ونفوذ مشيئته، وذلك أن الخلق محتاجون ومضطرون إلى جلب المنافع ودفع المضار.

ومن المعلوم لكل عاقل أن حاجة النفوس إلى خالقها وإلهها أعظم من جميع الحاجات والضرورات، فهي مضطرةٌ إلى علمها بأنه خالقها وحده، ومالكها وحده، ومبقيها وحده، وممدها بمنافعها وحده، ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ

الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

ولم يخرج عن هذي الفطرة إلا من اجتالتهم الشياطين، وحولت فطرهم، وغيرتها بالعقائد الفاسدة، والخيالات الضالة، والآراء الخبيثة، والنظريات الخاطئة.

فلو خلُّوا وفطرهم لم يميلوا لغير ربهم، منيين إليه في جلب المنافع ودفع المضار، ومنيين إليه في التأله والتعبد والخضوع والانكسار.

من الأدلة

الثواب المعجل للمحسنين،
والعقاب المعجل للظالمين

ومن براهين وحدانية الله تعالى وكرمه: ما يكرم الله به الواصلين لأرحامهم، المحسنين إلى المضطرين والمحتاجين، وخلفه العاجل لهم نفقاتهم، وتعويضه لهم من جوده وكرمه، وفتحهم أسباباً وأبواباً من الرزق بسبب ذلك الإحسان الذي له الموقع الطيب.

وقد علم الخلق المتأملون أن سبب ذلك تلك الأعمال الصالحة والصلة والإحسان والمقدمات الحسنة؛ ألا يدلنا ذلك أن الله قائمٌ على كل نفس بما كسبت؟ وأن هذا جزاء معجل وثواب حاضر نموذجٌ لثواب الآخرة؟ وأنواعٌ ذلك وأفراده لا تدخل تحت الحصر، وقد رأى الناس من ذلك عجائب، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ [سبأ: ٣٩]، و﴿ لِيَنْ شَكَّرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

ولقوله صلى الله عليه وسلم: «من أحب أن يبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أجله، فليصل رحمه» متفق عليه.

فكم أحسن الله على المحسنين، وكم أخلف نفقات المنفقين، وكم جبر قلوب الواصلين لأرحامهم المشفقين.

ونظيرُ هذا البرهان: العقوباتُ التي يعجّلها اللهُ للباغين والقاطعين والظالمين والمجرمين بحسب جرائمهم، عقوباتٌ يشاهدها الناس رأياً العين، ويتيقنون أن ذلك جزاءٌ وعقوبةٌ لتلك الجرائم.

فمن تأمل وسمع الوقائع، وأيام الله في الخلق، وعلم ارتباطها بأسبابها الحسنة والسيئة: علم بذلك وحدانية الله وربوبيته وكمال عدله وسعة فضله، فضلاً عن الاستدلال بها على وجوده، ووجوب وجوده.

فإن كلّ ما دلّ على شيء من أوصافه وأفعاله؛ فإنه يتضمن إثبات ذاته ووجوب وجوده.

وعلم استناد العوالم العلوية والسفلية إليه في إيجادها وبقائها وحفظها وإمدادها بكل ما تحتاج إليه.

فصلُ تابعٍ لِمَا قبله

طرق معرفة الله واسعة غير منحصرة

واعلم أن طرق معرفة الله واسعةٌ جدًا؛ وذلك بحسب حاجة الخلق وضروراتهم إليها، وكلُّ يعبرُ عنها بعباراتٍ: إما كلية وإما جزئية، بحسب الحال التي تحضره، وبحسب الأمور التي تغلب عليه.

وإلا فكلُّ ما خَطَرَ في القلوب، وشاهدته الأبصار، وأدرسته الحواس والمشاعر، وكلُّ متحركٍ وساكنٍ، وكلُّ حيوانٍ وجمادٍ: أدلةٌ وبراهين على وحدانية الله، وآيات عليه.

وفي كلِّ شيء له آيةٌ تدل على أنه واحدٌ

ولكن الجزئيات تسبق إلى الأذهان، وتفهمها القلوبُ تفصيليًا، ويحصلُ بها النفعُ والفائدةُ العاجلة؛ لسهولتها وبساطتها، وكونها تدرك بالبديهة، فلنذكر لها أمثلةً وحكاياتٍ عن المتقدمين والعصريين، وكلُّ يفهم منها ما يناسبه ويليق بفهمه.

أمثلة وحكايات في الاستدلال على الله

● سئل بعضهم: بِمَ عرفت ربك؟ فقال: إن البعرة تدل على البعير،
وآثار السير تدل على المسير، فسماؤ ذات أبراج، وأرض ذات فجاج،
وبحار ذات أمواج؛ ألا تدل على اللطيف الخبير؟

● واجتمع طائفة من الملاحدة ببعض أهل العلم - أظنه أبا حنيفة -
فقالوا: ما الدلالة على وجود الصانع؟
فقال لهم: دعوني فخاطري مشغولٌ بأمر غريب.

قالوا: ما هو؟

قال: بلغني أن في دجلة سفينة عظيمة، مملوءة من أصناف الأمتعة
العجيبة، وهي ذاهبة وراجعة من غير أحدٍ يجرها، ولا رُبانٍ يقوم عليها.

فقالوا له: مجنون أنت؟

قال: وما ذاك؟

قالوا: هذا يصدقه عاقل؟

فقال لهم: فكيف صدقت عقولكم أن هذا العالم بما فيه من الأصناف
والأنواع والحوادث العجيبة، وهذا الفلك الدوار السيَّار يجري وتجري

هذه الحوادثُ بغير محدث، وتتحرك هذه المتحركاتُ بغير محرّك، فرجعوا على أنفسهم باللام.

● وقيل لبعضهم: بِمَ عرفت ربك؟ فقال: هذه النطفةُ التي يليها الفحل في رحم الأنثى، فيطوّرها الله من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آخر أطوارها، فيكون بشراً سوياً كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، له سمعٌ يسمع به الأصوات، وبصرٌ يبصر به المشاهدات، وعقلٌ يهتدي به إلى مصالحه، ويدان يبطش بهما، ويعمل بهما الأعمال الدقيقة، ورجلان يمشي بهما، وأعضاء كثيرة خلقت لمنافعٍ أخرى معروفة، وله منافذٌ يدخل منها ما يغذي البدن، ومنافذٌ أخرى يخرج منها ما يضره، وقد رُكّب هذا التركيبَ العجيبَ الذي لو اجتمعت الخلق على إيجاد شخصٍ واحد على هذا الخلق المحكم العجيب لعجزت معارفهم وقُدْرهم عن ذلك؛ أليس ذلك دليلاً وبرهاناً على وجود الخالق وعظمته ووحدانيته؟

قلت: وقد ذكر الله هذا البرهان في كتابه في أساليب متنوعة.

● وقيل لبعضهم: بِمَ عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم والهمم.

ومعنى ذلك: أن العبد يعزم في كثير من أموره عزمًا جازمًا مصممًا لا تردد فيه، ثم بعد ذلك تنتقض همته، وينحلُّ عزمه إلى تركه، وإلى أمرٍ آخر يرى فيه مصلحته.

وما ذلك إلا لأن الله على كلِّ شيء قدير، يصرف القلوب كما يدبّر الأبدان، وقد يصرفه عن بعض ما يعزم عليه لطفًا به، وإبقاءً على إيمانه

ودينه، فيتلطف به من حيث لا يشعر؛ فنسأله اللطف في الأمور كلها،
والتيسير لليسرى.

● **وسئل بعضهم:** بِمَ عرفت ربك؟ فقال: كم كنتُ مكروبًا ففرج
كربتي، وكنتُ مريضًا فدعوته فشفاني، وكنتُ فقيرًا فأغنانني، وكنتُ ضالًّا
عن الهدى فتلطف بي وهداني، وليس هذا الأمر لي وحدي؛ فكم له على
عباده من هذه النعم وغيرها مما لا حصر له ولا عدٌّ، وهذا يضطرني إلى
الاعتراف بوحدانيتها وقدرته ورحمته.

● **وقيل لبعضهم:** بِمَ عرفت الله؟ فقال: قد رأينا ورأى الناس في الدنيا
مصارعَ البغاة المجرمين وعواقبهم الوخيمة، كما رأينا ورأوا في المحسنين
عواقبهم الحميدة، فعجّل للعباد نموذجًا من الثواب والعقاب، ليعرفوه،
ويخضعوا له وحده، ويعبدوه وحده.

● **وقيل لآخر:** بِمَ عرفت الله؟ فقال: بإيصاله النعم إلى خلقه وقت
الحاجة والضرورة إليها.

هذا الغيث ينزله وقت الحاجة، ويرفعه إذا خيف منه الضرر، وهذا
الفرج يأتي إذا اشتدت الأزمات، وهذه المطالبُ تأتي منه وقت الحاجة
إليها، وهذه أعضاء الآدمي وقواه يعطيها الله إياها شيئًا فشيئًا بحسب
حاجته إليها.

فهل يمكن أن تكون هذه الأمور صدفةً؟ أم يعلم بذلك علم اليقين

أن الذي أعطاهم إياها وقت الحاجة والضرورة هو الرب المعبود، الملك المحمود؟

قلتُ: ومن هذا الباب ما نتكلم فيه من معرفة الله، فإنه لما كانت حاجة العباد إلى معرفة الله فوق جميع الحاجات، والضرورة إليها تفوق جميع الضرورات؛ يسرها الله لعباده ونهج لهم طرقها، وفتح لهم أبوابها ومسالكتها، وأوضح أدلتها وذلك لشدة الحاجة إليها، وسعة رحمة الله وإحسانه.

● وقيل لبعضهم: بِمَ يُعْرِفُ اللهُ؟ فقال: يُعْرِفُ بِأَنَّهُ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، فأعطاه آلات العلم، ويسر له أسبابه، فلم يزل يتعلم أمور دينه حتى صار عالماً ربانياً، ولم يزل يتعلم أمور دنياه حتى صار ماهراً مخترعاً للعجائب، ويسر له كلَّ سبب ينال به ذلك.

ومن عجيب الأمر أن اللوح إذا كُتِبَ فيه، وشُغِلَ بشيء من الأشياء لم يسع غيرها، ولم يمكن أن يكتب فيه شيء آخر قبل محي ما كُتِبَ فيه، وقلبُ الإنسان لا يزال يحفظ ويعقل الأمور والمعارف المتنوعة.

وكلما توسعت معارفه وغزر علمه: قويت حافظته، واشتدَّت ذاكرته، وتوسعت أفكاره، فهل هذه الأمور في طوق البشر وقدرتهم؟ أم هذا من أكبر البراهين على عظمة الله ووحدانيته وكمال وسعة رحمته؟

● وقيل لبعضهم: بِمَ يُعْرِفُ اللهُ؟ فقال: هذه النواة يغرستها الناس؛

فيأتي منها النخيل والأشجار المتنوعة، وتخرج الثمار اللذيذة النافعة، وهذه الحبوب تُلقي في الأرض؛ فتخرج أصناف الزروع التي هي مادة أقوات الآدميين وبهائمهم، ثم لا تزال تعاد وتُغَلُّ كل عام ما يكفي العباد ويزيد عن حاجتهم.

أليس هذا برهاناً ودليلاً على وجود الله وقدرته، وعنايته بعباده ورحمته؟ وقد نبّه الله على هذا الدليل والبرهان العقلي المشاهد في قوله تعالى:

﴿ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ [الأنعام: ٩٥].

وقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿ [الواقعة: ٦٣ - ٦٤].

● وقيل لمن بادر إلى الإيمان بالرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: ما الذي دعاك إلى ذلك؟ فقال: رأيت ما أمر بشيء فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به.

فاستدلّ بنور عقله وقوة بصيرته على صدق الرسول باشتغال ما جاء به على الصلاح ودفع الفساد، وأن ذلك موافق للعقول السليمة.

● وقيل لبعض العارفين: بأي شيء يُعرف الله؟ فقال: بذوق حلاوة الطاعات، وتجرع مرارة المخالفات.

وهذا استدلال برهاني وجدائي لمن وُفق لهذه الحال، يضطرُّ العبد إلى كمال الإيمان وزيادة اليقين؛ فإن من وجد حلاوة الطاعات والإيمان،

وذاق لذة اليقين، وتألّم إذا غلبته النفس الأمارة بالسوء على اقتحام بعض المعاصي، اضطره الأمر إلى معرفة الله ووحدانيته.

● وقيل لبعضهم: بأي شيء يُعرفُ الله؟ فقال: بانتظام الأسباب على وتيرة واحدة، ثم بتحويله لبعضها ومنع سببته، وبإيجاده أشياء بغير أسبابٍ تعرف.

وهذا صحيح، فإنه تعالى أجرى الأمور على أسبابها ومسبباتها قدرًا وشرعًا؛ ليُعرف بذلك حكمته البالغة، ولينشط العاملون على أعمالهم التي ربطها الله بمسبباتها، وأجراها على سنته، ثم إنه مع ذلك منع بعض الأسباب عن ترتب آثارها عليها، كما في معجزات الأنبياء الخارقة للعادة، وكرامات الأولياء.

وكذلك يوجد كثيرًا من الأشياء بغير الأسباب المعهودة، كما أوجد عيسى من أمّ بلا أب، ويحيى بين أبوين لا يولد لمثلها.

وأشياء كثيرة من هذا النوع؛ ليعرف العباد أنه المتصرّف التصريف المطلق، وأنه كما يتصرّف بالأشياء بأسبابها المعلومة المرتبطة بها؛ كذلك يتصرف فيها بغير المعهودة.

ولهذا كان جمهور هذا النوع من معجزات الأنبياء والكرامات للأولياء، وقد تكون لغيرهم، وهي كلها براهين على وحدانية الله وإلهيته وربوبيته.

● وقيل لبعضهم: بم يُعرف الله؟ فقال: من نظر في موادّ الرزق، وتأمل

حالة من لهم موجودات كثيرة، وعقارات وغلات كثيرة، ولكنهم قد أتكّلوا عليها، فضاقت عليهم الأمور، وركبتهم الديون، وجاءت الأمور على خلاف ما يأملون.

ثم نظر إلى أناسٍ كثيرين ليس لهم عقارات ولا غلات ولا موجودات، وإنما يسرت لهم أسباب بسيطة، لا تخطر على بال أحدٍ أن تكفيهم، ولكن الله بارك فيها، وبسط لهم الرزق، فكانوا أبسط قلوبًا، وأريح نفوسًا، وأرغد عيشًا من الأولين.

والسبب في ذلك أنهم قاموا بالأسباب، متوكّلين على مسببها، فقلوبهم على الدوام متطلعةٌ إلى ما عند الله، راجيةٌ منه تسهيل الرزق، والأولون بالعكس: قلوبهم متعلقةٌ بأملاكهم وموجوداتهم؛ فبذلك يُعرف الله، ويُعرف أن الأمر كلّهُ لله.

لذلك إذا نظرنا لكثير من الأقوياء الأذكياء العاملين ليلاً ونهارًا، تجد رزقهم مقترًا، وأسبابهم مخففةً، ونجد كثيرًا من الضعفاء البُلداء الذين ليس عندهم من القوة والذكاء ما عند الأولين، والله قد بسط لهم الرزق، ويسّر لهم أمرهم، وهذا كله مشاهدٌ يضطرُّ العاقل أن يشهد الله بالتصرف المطلق، وأن الأمر كلّهُ لله.

● وقيل لآخر: بِمَ يُعرف الله؟ فقال: بمداولته الأيام بين العباد في العز والذلّ، والغنى والفقر، بأسباب وبغير أسباب.

● وقيل لآخر: بأي شيء يُعرف الله؟ فقال: بمشاهدة مصداق قوله

تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

فتنظر مصداقها شاملاً للخليقة، وأن كلَّ أحد قد يسر الله له من أسباب الرزق ما به يعتاش: هذا بتجارته، وهذا بصناعته، وهذا بحراثته، وهذا بعمله وخدمته، وهذا بمخلفات من قبله، وهذا بتنمية المواشي، وهذا بإحسان غيره عليه، بسؤالٍ وغير سؤال، وهذا بكدِّ غيره عليه، إلى غير ذلك من الأسباب المعروفة، التي قدَّرها العزيز الحكيم رزقاً للعباد، فسبحان من وصل رزقه إلى أصغر الذرات، ومهامه البراري، وقبور البحور والظلمات!

● وقيل لبعضهم: بِمَ يَعْرِفُ اللهُ؟ فقال: إن لمعرفة الله أبواباً وطرقاً كثيرة جداً، ومن جملتها ما هدى الله له العباد في هذه الأوقات، من المخترعات الكثيرة، وأعمال الكهرباء، وإيصال الأصوات والأنوار ونحوها إلى مسافات شاسعة، وأمكنة متباعدة.

وهو الذي علَّم الإنسان، وهو الذي أقدره على ذلك، وهو الذي خلق له المواد والمعادن التي تُسْتَخْرَجُ بها هذه الأشياء، وهدها إلى تأليفها.

ومعلومٌ أنه خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، ولا يقدر على شيء، فعلم جميع هذه الأمور، وكانت هذه من جملة منن الله عليه، فخالق السبب هو خالق المسبَّب - تبارك وتعالى -.

فهذا أكبر برهانٍ على كمال قدرة الله الذي أقدر العبد الضعيف على هذه الأمور التي تعد سابقاً من الأمور المحالة الممتنعة.

قلتُ: وهذه الأجوبة كلها عن الكلّيات والجزئيات صحيحة، تضطرُّ العقول إلى الاعتراف بربها ووجدانيته، ويمكن مضاعفتها إلى أضعاف كثيرة.

فإنك إذا نظرت نظرةً عموميةً إلى العالم العلوي والسفلي وعظم هذه المخلوقات، وانتظامها العجيب، وتركيبها المحكم وترتيبها، وما ينتج عن ذلك من مصالح العالم والمخلوقات؛ علمت أن لهذا العالم ربًّا عظيمًا، ومَلِكًا كبيرًا، وقادرًا مقتدرًا، قد خضعت له الأكوان، ودانت له الخليقة، وأخذ بنواصي العباد، وعلمت أن كلَّ ما في السموات والأرض عبيدٌ ومماليك لربهم؛ ليس لهم من الأمر شيء.

ثم إذا نظرت إلى كلِّ مخلوق على حدته، وتأملت ما اشتمل عليه من الخلق العجيب والحكم الباهرة، ثم نظرت على وجه الخصوص إلى نفسك وصفاتك، وما أودع فيها من الخلق العجيب والحكم الباهرة؛ عرفت أن الله هو الربُّ الخالق الرازق، المدبِّر لكلِّ شيء، الحكيم في كلِّ شيء، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

فجميعُ مخلوقات الله وجميعُ الحوادث التي يُحدثها الله آياتٌ وبراهينٌ على أنه واحدٌ عظيم، وربُّ كريم، ومَلِكٌ جواد.

وكذلك إذا تأملت الشرع الكامل، وأن أخباره كلّها صدقٌ، وقد قامت البراهين على صدقها، وأحكامه كلها عدل، تأمر بالخير والصلاح، وتنهى عن الشر والفساد، وتجري أحكامها المحكمةً وحقوقها العادلة مع

الأزمان، مهما تطورت الأحوال، واختلفت العوائد، لا يختل صلاحها، ولا ينتقض هداها.

بل لا يكون هديٌّ وصلاحٌ وخيرٌ إلا بها، ولا تأتي بأمرٍ تحيله العقول، وتكذبه الحواس الصحيحة، بل تشهد العقول الكاملة أن أحكامها أحسن الأحكام، وأعدُّها وأقومها وأهداها.

أليس هذا أكبر برهانٍ على عظمة الله وقدرته، وسعة علمه وشمول حكمته ورحمته؟ وأنه المحمود في كلِّ حال على خلقه للمخلوقات وعلى شرعه الشرائع؟

أحسن ما صنعه، وأحكم ما شرعه؛ ليس في ذلك عيبٌ وعبث، وليس فيها ما ينافي الحكمة بوجه من الوجوه: ﴿صَنَّعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾

[النمل: ٨٨].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فصل من الأدلة أن وجود الرب أظهر من كل شيء

ومن أعظم البراهين على وحدانية الله ووجوب وجوده:

ما دعت إليه الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - أممهم، ونبئتهم على البراهين العقلية على ذلك، وأخبروهم خبراً معلنين به ومتفقين عليه: أن وجود الرب أظهر من كل شيء وأجلى وأوضح من كل شيء، وأعلى من كل شيء، وأنه لا يمكن أن يعترض ذلك شك ولا ريب بوجه من الوجوه، ولهذا قالت رسالهم جميعاً: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وهذا استفهام وإنكار عظيم على من يشك أو يمتري بالله، وبيان أنه متقرر في عقول الخلق وفطرتهم أن وجود الله ووحدانيته أظهر الأشياء وأجلاها، وأن من شك في ذلك فهو مباهت مكابر، غير مبالٍ بمخالفة العقل والدين.

فإن جميع الأشياء - وجودها وبقائها وحفظها وحصول جميع كمالاتها - بالله تعالى، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الذي أوجد كل شيء، ولهذا قالوا: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

فالذي خلق السموات والأرض - العالم العلوي والعالم السفلي -، بما

فيها من المخلوقات، أوجدها من العدم، وأبدعها وأتقن صنعها؛ لا ينكره إلا من جنت عقولهم، وانقلبت قلوبهم، وفسدت فطرهم، واختلفت آراؤهم.

وأكثرُ أعداء الرسل مشركون معترفون بالرب وتفرد به بالخلق، وذلك كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم، ومنهم ملاحدة معطلون كفرعون؛ إذ قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، على وجه الإنكار.

وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وجميع الرسل ذكروا أمهم المكذبين، واحتجوا عليهم بخلق الرب للمخلوقات كلها، وأنه رب العالمين، ورب الأولين والآخرين، وذكروهم بكثرة النعم من الله عليهم، وكل رسول يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

فاحتجوا عليهم وبرهنوا على ذلك بأنه الرب الخالق المدبر، المنعم بالنعم كلها، وأن من كان هذا وصفه فهو المستحق لإخلاص العبادة له، ولكثرة ذكره وشكره وحمده والثناء عليه.

وهذه كلها براهين عقلية لا ينكرها إلا من نبذ العقل والدين.

من الأدلة أيام الله ووقائعه

وكذلك ذكروهم بأيام الله ووقائعه في الأمم الطاغية، وذكروهم أن هذه العقوبات ثمرة الكفر والتكذيب، وأنها نموذج من عقوبات الآخرة. وهي عقوبات ومثلات شاهدها الناس بأبصارهم، ومن لم يشاهدها فقد تناقلتها الأمم والقرون، وتواترت أخبارها.

ولهذا يجعل الله هذا النوع من الآيات العقلية الحسية، قال الله تعالى:

﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [الروم: ٩].

﴿ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[الأحقاف: ٢٧].

من الأدلة

ما عليه الأنبياء من الكمالات وما لهم من الآيات

وكذلك ذكرتهم الرسل بما هم عليه من النصح الكامل، والعلم الواسع، والصدق، وأن جميع الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - أعلم الخلق، وأصدق الخلق، وأنصح الخلق للخلق، وأنهم معصومون محفوظون عن كل وصف ذميم.

وذكروا من معجزاتهم وبراهين صدقهم ما يضطر العباد إلى الاعتراف بأنهم أصدق الخلق، وأن كل ما جاءوا به فهو حق.

وأعظم ما دعوا إليه: توحيد الله ومعرفته، فجميع آيات الأنبياء ومعجزاتهم وبراهين صدقهم من جملة الأدلة على وحدانية ربهم، وأنه الملك الحق المبين.

من الأدلة

اجتماع كلمة الرسل على توحيد الله

ثم إن الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - الذين هم أعلى الخلق في كل علم وصدق وبيان وفضل وكمال، قد اتفقت كلمتهم، واجتمعت دعوتهم على الأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والاعتراف لله بوجود الوجود والكمال المطلق.

وهذا أعظم الحقائق كلها، وهو التوحيد، قد أجمع عليه أكمل الخلائق عقولاً وأدياناً وفضائل: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيْنَهُ يَوْمَنُونَ ۖ وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۖ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

[الجن: ٦ - ٨].

من الأدلة شهادة الله وشهادة الملائكة وأولي العلم والمهتدين

ومن ذلك أنه شهد لنفسه - ومن أكبر منه شهادة؟! - أن ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

فالملائكة كلُّهم وأهل العلم الصحيح الذين أئمتُّهم وسادتهم الرسل، ثم العلماء الربانيون والهداة المهتدون، شهدوا لله بالوحدانية، لم يتخلف منهم أحدٌ.

ومن زعم أن عنده علماً ولم يشهد لله بهذه الشهادة؛ فإنه ليس بعلمٍ نافع، بل علم ضارٌّ، أثر في قلب صاحبه العلو والاستكبار؛ وهو العلم المورث عن أعداء الرسل الذين قال الله عنهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

فأخبر تعالى أن عند أعداء الرسل علوماً قاوموا بها علوم الرسل، ورضوا بها، واطمأنوا لها، واستهزءوا بما جاءتهم به الرسل، حتى نزل بهم العذاب المحيط، والخزي الفاضح.

وهذا نظيرُ ردِّ الملاحدة والماديين لما جاءت به الرسلُ من التوحيد والإيمان، والسخرية بها وبأتباعها بأنهم رجعيون مقلدون، أتباع كلِّ ناعق، وأنهم متخلفون عن ركب الإنسانية! وما أشبه ذلك مما ينعق به سفهاء الأحلام ضعفاء العقول، الذين قلّدوا الملاحدة في كلِّ ما يقولون ويفعلون، واغترّوا بعلوم مادية دنيوية لا تغني عن أهلها شيئاً حين فقدت الروح الدين، بل صار ضررها عليهم أكثر من نفعها، وشرها عليهم أكثر من خيرها.

من أعظم أضرارها وشرورها عليهم، أنهم بها تكبّروا على الحق وعلى الخلق، واحتقروا بها علوم الرسل وأتباعهم التي هي النافعة المزكية للقلوب، المطهرة للأخلاق، المصلحة للأموال كلها، الجالبة للخير والهدى، الدافعة للشرور كلها.

فهؤلاء الملاحدة - ومن قلّدهم - علومهم نفخت فيهم روح الكبرياء، وصيّرتهم بطورٍ غير طورهم، ورأوا بها العباد أحسن من الحيوان البهيم، وهم في الحقيقة الأذليون.

ومن أضرارها عليهم: أنها - وإن رقت حضارتهم ومدنيتهم - ولكنها حضارة ومدنية مادية محضة، مهددة كلِّ وقت بالهلاك والتدمير.

فأي مدنيّة وحضارةٍ روحها الظلم والجشع واستعباد الضعفاء، والاستعداد بالأسلحة الفتاكة المهلكة للحرث والنسل، ونتائجها وثمرتها التباحن بين أهلها؛ يصبُّ بعضهم على بعض العذاب الفظيع؟

فهل هذا إلا أكبر دليل وبرهان على كمال قدرة الله وعدله وحكمته؟
وهذه الأمور من أيامه ووقائعه وعذابه الأليم بين الناس، ولم تزدهم
هذه المواعظ والعبر إلا عتوا ونفورا، فهم ينتقلون من عذاب شديد إلى
أشد منه، وهم في طغيانهم يعمهون، وبمدنيتهم الشنيعة وآثارها يتمدحون،
﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].

ما أعظمها من عبر لو أن القلوب واعية! وما أدلها على كمال عدل
الله وحكمته لو أن الفهوم صالحة! ولكن القلوب غطيت بأغشية الغفلة
والكبرياء والاعتزاز، والنفوس أقبلت على الأمور الضارة، قد خلبتها
المناظر البراقة وسحرت الأبصار: ﴿أَفَمَن زِين لَّهُ سَوْءَ عَمَلِهِ فَرَّاهُ حَسَنًا﴾
[فاطر: ٨]، ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا
فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وأما شهادته تعالى لنفسه بالوحدانية، فقد نطقت بذلك جميع الكتب
التي أنزلها على رسله، وأنطق بها رسله، واتفقت على ذلك دعوتهم،
وتبعهم على ذلك جميع أتباعهم من العلماء الربانيين والهداة، وجميع
طبقات أهل العلم والإيمان.

وكذلك أقام على ذلك الشواهد النفسية والأفقية: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ
وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

والعالم العلوي والعالم السفلي كلها آياتٌ بيناتٌ، وبراهين قاطعاتٌ على وحدانية خالقها، ومدبرها، وامتقن صنعها، ومبدعها بالخلق العجيب، والنظام الباهر، والحكم التي يعجز الفصحاء والبلغاء عن التعبير والإحاطة ببعض آياتها وبراهينها.

من الأدلة

العواقب الحميدة للمؤمنين، والذميمة للكافرين

ومن شهادته تعالى لنفسه بالوحدانية والتفرد بالعظمة والكمال: ما عَجَّلَهُ لأنبيائه وأتباعهم من الآيات والمعجزات، والنصر العظيم، والكرامات المتنوعة، والعواقب الحميدة، وما عجله لأعدائهم من الهلاك الخاص والعام، والمثالات والأخذات الصوارم، والعواقب الوخيمة. وكذلك ما تركه لأنبيائه وأصفيائه من لسان الصدق، والثناء العام المنتشر، والمحبة في قلوب الخلق، وما لأعدائه من البُغْضِ والذم، واللعن المتتابع.

كل ذلك آياتٌ بيناتٌ على وحدانية الله وصدق رسله.

قال تعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِيْنَ﴾ [الصفات: ٧٩]، ﴿سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيْمَ﴾ [الصفات: ١٠٩]، ﴿سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (١٢٠) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِيْنَ﴾ [الصفات: ١٢٠ - ١٢١]، ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْأَوْا السُّوْأَىٰ أَنْ كَذَبُوا بِعَايَتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ١٠].

من الأدلة

إخبار الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أمور من الغيب

ومن أعظم البراهين - الجامعة بين كونها نقليةً وعقليةً حسيّةً - : إخبار الله في كتابه، وفي سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أمورٍ من الغيب كثيرةً جداً:

أمورٍ ماضية سابقة لوقت التنزيل، وأمورٍ حاضرة وقعت أيام الرسالة، وأمورٍ مستقبلية لا تزال تحدث شيئاً فشيئاً؛ موافقةً مطابقةً لما أخبر الله به ورسوله على الوجه الذي أخبر، وهي غير محصورة في أنواعها فضلاً عن أفرادها، تستحق أن يصرف لها تصنيفٌ مستقل.

فكُلُّ واحدٍ منها برهان، ثم هو مع الثاني ومع الثالث والرابع وما بعده، براهين متعددة، وكلها تضطر الناظر فيها إلى الاعتراف لله بالوحدانية ولنبيّه بالرسالة، وأن جميع ما أخبر الله به وأخبر رسوله فهو حق لا ريب فيه.

من الأدلة

تحديّ الله لجميع الإنس والجن أن يأتوا بمثل القرآن

ومن ذلك تحدي الله لجميع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وإخباره أنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وإخباره أنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، والتحدي قائم في كل وقت، والعجز من الخلق ظاهر، مع توفر دواعي الأعداء، وحرصهم الشديد على ردّ ما جاء به الرسول، والقدح في رسالته.

وهذا برهان عظيم يضطرُّ كلَّ عاقلٍ معه إنصافٌ أن يعترف بالحق الذي قامت البيّناتُ الظاهرة والدلالات الباهرة على صدقه من كلِّ وجه؛ والله الحمد.

من الأدلة

الأثار الجليلة المترتبة على رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ومن براهين وحدانية الله وصدق ما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الأثارُ الجليلة التي نشأت وترتبت على رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإنه بُعث في أمة أميَّة، والأرض مملوءة من الجهل والشرك والشور المتفاقمة، فهداهم الله به من الضلالة، وعلمهم به بعد الجهالة، واستقامت أخلاقهم وصلحت أعمالهم، وامتلت الأرض من الخير والهدى والصلاح، وانتشرت الرحمة والعدل، وتم به الفلاح والنجاح.

وفُتحت القلوب بالعلوم النافعة والمعارف الصحيحة والإيمان، وأظهر الله دينه على سائر الأديان، وانتشر وقبلته القلوب المستقيمة في جميع الأقطار، وزُهِق به كل باطل ومحال.

ولم يزل أهله ظاهرين على غيرهم حين كانوا مستمسكين به، وقائمين حق القيام به، حتى حصل الانحراف من أهله في العقائد والأخلاق، والأعمال الدينية والدينيوية، فزالت عنهم بذلك آثاره الجليلة وتبدلوا بأضدادها.

أفليس في هذا أكبر برهانٍ على أن هذه الشريعة شرعها العزيز

الحكيم، ونصرها الرب العظيم؟ وأن الخير كله ملازمٌ لها وتابع لتعاليمها وأخلاقها؟ وأنها تنزِيلٌ من حكيم حميد؟ وأن أخبارها كلها صادقةٌ تشهد العقول بصدقها؟

ولم يأت منها خبرٌ واحد صحيح يناقض الواقع ويخالف المحسوس، فإنها لا تأتي بما تحيله العقول، وربما أتت بما تحار فيه العقول ولا تهتدي إليه؛ لأن في الشريعة من التفاصيل العظيمة الخبرية والحُكمية ما لا تصل إليه عقول العقلاء، ولا تهتدي إليه فطنة الفُطاء.

ولم يأت علم صحيح أو نظرية صادقة متفق عليها بين العقلاء تناقض ما جاء به الرسول محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وهل في البراهين اليقينية أعظم من هذا البرهان وأوضح من هذا البيان؟ ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا** ﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ صدقًا في إخبارها، وعدلًا في أحكامها وشرائعها.

من الأدلة

إحكام الشريعة وصدق أخبارها واتفاق أحكامها

ومن البراهين على وحدانية الله وصدق رسوله وحقيقة ما جاء به: أن الشريعة كلها محكمة في غاية الحسن والانتظام، متصادقة أخبارها، متفقة حقائقها، متعادلة أحكامها، لا يمكن البشر أن يقترحوا مثلها في الحسن، وموافقتها لكل زمان ومكان، ومجاراتها لجميع الأحوال، وجريانها على الهدى والرشد والسداد والصلاح، لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا عبث ولا نقص ولا اختلال.

وكلما أمعن فيها العالم البصير، علم أنها أصدق الأخبار وأنفعها للقلوب، وأنها أحسن الأحكام وأصلحها في عباداتها ومعاملاتها، وتفصيلها للحقوق الخاصة والعامة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فنبه الله أولي الألباب والعقول على هذا البرهان العظيم، الذي هو من أعظم البراهين وأوضحها وأجلاها على أنه من عنده، وأنه حق كله، وأن ما ناقضه فهو الباطل، قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

أما جاء هذا الدين بكل صدق وصدق الصادقين!؟

أما زجر عن الكذب وأبعد الكاذبين؟!!

أما حثّ على العدل الكامل في حقوق الله وحقوق العباد؟!!

أما نهى عن الظلم والجور والشرور كلها والفساد؟!!

أما تأسس على الإيمان والإخلاص والتوحيد، ونهى عما ينافي ذلك من

الشرك والتنديد؟!!

أما أمر ببرّ الوالدين وصلة الأقارب، والإحسان إلى الجيران

والمساكين، والإحسان إلى عموم الخلق؛ حتى البهائم العجم، وأخبر أنه

يجب المحسنين؟!!

أما أمر بوفاء العهود والعقود والوعد والأيمان، ونهى عن الغدر

والنكث والعدوان؟!!

أما حث على فعل الأسباب النافعة في الدنيا والدين، وأمرنا ألا نعتمد

عليها، بل نعتمد على مسببها ونرجو فضل رب العالمين؟!!

أما أحل لنا جميع الطيبات وحرّم علينا كلّ خبيث، وحثنا على كلّ أمر

نافع وحثرنا عن المضار؟!!

أما أمر بالصبر على المكاره والشكر عند المحابّ والمسار؟!!

أما نهانا عن الهلع والجزع والجبن والخور والأخلاق الرذيلة؟!!

أما حثنا على القوة والشجاعة والعفة وجميع الأخلاق الجميلة؟!!

أما أمر بكل معروف شرعاً وعقلاً وفطرةً، ونهانا عن كلّ منكر شرعاً

وعقلاً وفطرةً؟

فما أمر بشيء إلا رآه أهل العقول السليمة أحسن الأمور وأعد لها، ولا نهى عن شيء إلا عن أقبح الخصال وأرذلها.

وضَّح العقائد الصحيحة النافعة التي لا تصلح القلوب إلا بها، وأوجبها وجعلها أساساً تنبني عليه الأقوال والأفعال، وأمور الدين والدنيا، وجاء بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة التي تُصلح الأفراد والجماعات، وتستقيم بها العبادات والمعاملات.

فأَيُّ خيرٍ وهدى وصلاح عاجل وآجل لم يبينه ويدعُ إليه؟ وأي شرٍّ وفساد وضرر عاجل وآجل لم يحذر عن طريقه ومسالكه؟

وأَيُّ أصلٍ من أصوله، وقاعدةٍ من قواعده، وخيرٍ من أخباره، وحكمٍ من أحكامه ناقضته العلوم الصحيحة أو خالفته العقول والنظم المستقيمة؟

بل قامت البراهين التي لا تنقض؛ على أن كلَّ شيء أُسِّس على غيره فهو ضرر وخراب، وكل بناء بُني على غير تعاليمه وأحكامه فأخره الانهيار والتباب، وكلُّ نظام استُمدَّ من غيره فعواقبه وخيمة.

لأن الذي شرعه عالمُ الغيب والشهادة العزيز الحكيم، الذي أحاط بكل شيء علماً، ووسع كلَّ شيء رحمة وبراً، وتكفَّل لمن قام به واستقام عليه بالسعادة والفلاح، وضمن لمن تعبَّد به ودان لله به الثواب والنجاح.

فهو أكبر البراهين على عظمة الله ووحدانيته وسلطانه، وأعظم الآيات الدالة على حكمته وحمده وجوده وامتدانه، فهو الهدى والرحمة والشفاء والنور، وهو الرشاد والصلاح لكل الأمور: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

فلهذا القرآن وهذه الشريعة أكمل الصفات وأجل النعوت، ومخبرها - في جميع مواردنا ومصادرنا - يفسر هذه الأوصاف الجليلة التي لا سعادة للبشر إلا بعلمها وسلوكها والاهتداء بأنوارها، والتحقق بحقائقها وأسرارها.

فصل من الأدلة

صدق الرسل ووجوب توقييرهم وتقديم أقوالهم

ومن براهين وحدانيته وكماله وتوحيده بالعظمة والكمال: أنه قد ثبت بالبراهين والآيات المتنوعة - التي لا يمكن إحصاؤها، لا إحصاء أنواعها، ولا أفرادها - صدق الرسل، وأن ما جاءوا به هو الحق، وخصوصاً إمامهم وسيدهم محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

وأنه يجب على الخلق أن يعرفوا قدر الأنبياء، وتميزهم عن أصناف الخلق بكل أوصاف الفضائل، وأن الإيمان بهم ومحبتهم وتوقييرهم وتبجيلهم من أفرض الفرائض، وأوجب الواجبات.

وأنه يجب أن يكون لهم في قلوب العباد من العظمة والخضوع لما جاءوا به ما يضمنحلُّ معه جميع المقالات، وألا تُعارض أقوالهم بمعقولاتٍ أو قياساتٍ أو ذوقياتٍ، أو غيرها مما ينتمي إليه أهل الباطل، بل أقوال الرسل لا يتم للعبد إيمانٌ ولا إسلام حتى يجعلها هي الأصل الأصيل، والأساس الذي يُردُّ إليه كلُّ شيء.

وقد عُلِمَ أن زُبدة دعوتهم وأساسها الدعوة إلى توحيد الله ومعرفته، وإلى عبوديته وإخلاص العمل له، وقد قامت البراهين التي لا تعارض

ولا تمنع على صدقهم، وصحة ما جاءوا به.

فتعين على كل مكلف - له دين أو عقل - أن يعترف بما جاءوا به بغير قيد ولا شرط، لأن الأصل صحيح، والأساس ثابتٌ ثبوتاً يقينياً، والمعارضات كلها باطلة؛ لأن ما عارض الحق فهو باطل ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

فمن خضع لمعقولات المتحذلقين، أو نظريات المبطلين، وقدمها على ما جاءت به الرسل، فقد برهن على نقصان عقله، بل فقده لدينه. هذا كله مع التنزل على فرض وجود معقولاتٍ تناقض ما جاءت به الرسل!

فكيف والمعقولات الصحيحة تؤيد ما جاءت به الرسل، وهي من أكبر الشواهد على صدقهم، وإنما تقع المعارضة بين معقولات أناس سفهاء الأحلام، متكبرين بمعلوماتهم وآرائهم الضئيلة، والله المستعان.

كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «آياتُ الأنبياء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم، ليست مما تكون لغيرهم، فيعلمون أن الله لم يخلق مثلها لغير الأنبياء، وسواء في آياتهم التي كانت في حياة قومهم، وآياتهم التي فرّق الله بها بين أتباعهم وبين مكذبيهم بنجاة هؤلاء وهلاك هؤلاء، ليست من جنس ما يوجد في العادات المختلفة لغيرهم.

وذلك مثل: تغريق الله لجميع أهل الأرض إلا لنوح ومن ركب معه في السفينة، فهذا لم يكن قط في العالم نظيره.

وكذلك: إهلاك قوم عاد إرم ذات العماد، التي لم يُخلق مثلها في البلاد، مع كثرتهم وقوتهم وعِظَم عمارتهم التي لم يخلق مثلها في البلاد، ثم أهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية؛ مسخرة عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، حتى صاروا كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية، ونجا هود ومن اتبعه، فهذا لم يكن له نظير في العالم.

وكذلك: قوم صالح، أصحاب مدائن ومساكن في السهل والجبل وبساتين، أهلكوا كلهم بصيحة واحدة، فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

وكذلك: قومٌ لوطٍ أصحاب مدائن متعددة، رُفعت إلى السماء ثم قلبت عليهم، وأُتبعوا بحجارة من السماء تتبع شأدهم، ونجا لوطٌ وأهله إلا امرأته أصابها ما أصابهم، فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

وكذلك: قوم فرعون وموسى، جمعان عظيمان ينفرق لهم البحر، كلُّ فرق كالطُود العظيم، فيسلك هؤلاء ويخرجون سالمين، فإذا سلك الآخرون انطبق عليهم الماء، فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

فهذه الآياتُ تعرف العقلاء عموماً أنها ليست من جنس ما يموت به بنو آدم، وقد يحصل لبعض الناس طاعون ولبعضهم جربٌ ونحو ذلك، وهذا مما اعتاده الناس، وهو من آيات الله من وجه آخر، بل كلُّ حادث من آيات الله، ولكن هذه الآيات ليست من جنس ما اعتيد.

وكذلك الكعبة؛ فإنها بيتٌ من حجارة بوادٍ غير ذي زرع، ليس عندها أحدٌ يحفظها من عدو، ولا عندها بساتين وأموارٌ يرغب الناس فيها، فليس عندها رغبة ولا رهبة، ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة، فكل من يأتيها: يأتيها خاضعاً ذليلاً متواضعاً في غاية التواضع، وجعل فيها من الرغبة ما يأتيها الناس من أقطار الأرض؛ محبةً وشوقاً من غير باعث دنيوي، وهي على هذه الحال من ألوف من السنين، وهذا مما لا يعرف في العالم لبنية غيرها، وهذا مما حير الفلاسفة ونحوهم.

وكذلك ما فعل الله بأصحاب الفيل لما قصدوا تخريبها، قصدتها جيشٌ عظيم ومعهم الفيل، فهرب أهلها منها، فبرك الفيل وامتنع عن المسير

إلى جهاتها، وإذا وجهوه إلى غيرها توجهه، ثم جاءهم من البحر ﴿طَيْرًا أَبَايِلَ﴾ [الفيل: ٣]؛ أي: جماعات في تفرقة، فوجًا بعد فوج، رموا عليهم حصى هلكوا بها كلهم، فهذا مما لم يوجد نظيره في العالم، فأيات الأنبياء هي آيات وأدلة على صدقهم.

ومن هذا سنة الله في الفرق بين الأنبياء وأتباعهم وبين مكذبيهم...». ثم ذكر الآيات في إهلاك المكذبين للرسول وندوة الرسل، قال: «... وهذه الأخبار كانت منتشرة ومتواترة في العالم، وقد علم الناس أنها آيات للأنبياء وعقوبة لمكذبيهم، ولهذا يذكرونها عند نظائرها للاعتبار. والقرآن آيته باقية على طول الزمان، من حين جاء به الرسول، تتلى آيات التحدي فيه ويتلى قوله: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فنفس إخبار الرسول بهذا في أول الأمر، وقطعه بذلك، مع علمه بكثرة الخلق دليل على أنه كان خارقاً يعجز الثقلين عن معارضته، وهذا لا يكون لغير الأنبياء، ثم مع طول الزمان قد سمعه الموافق والمخالف، والعرب والعجم، وليس في الأمم من أظهر كتاباً يقرؤه الناس وقال إنه مثله.

وهذا يعرفه كل واحد، وما من كلام تكلم به الناس - وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظاً ومعنى - إلا وقد قال الناس نظيره وما يشبهه ويقاربه، سواء كان شعراً أو خطابةً أو كلاماً في العلوم، والحكمة،

والاستدلال، والوعظ، والرسائل، وغير ذلك، وما وجد من ذلك شيء إلا وُجد ما يشبهه ويقاربه.

والقرآن مما يعلم الناس عربهم وعجمهم أنه لم يوجد له نظير، مع حرص العرب وغير العرب على معارضته.

فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعدته ووعيدته آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية، وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية؛ كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم...». إلى آخر ما قال رَحْمَةُ اللَّهِ .

فصل
من الأدلة
أن ما جاء به الرسل فهو الحق النافع،
فما خالفه فهو باطل

ومن البراهين العقلية على وحدانية الله وصدق رسله: أن الرسل كلهم - وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - قد جاءوا وبالحق النافع، فأخبارهم كلها حق وصدق، وأحكامهم كلها حق وعدل وحكمة، فلم يبق حق إلا جاءوا به وبينوه وحثوا الخلق عليه، ولا باطل إلا وضحوه وهدّروا الخلق عنه.

وهذا الأصل متفق عليه بين جميع المعترفين بالنبواتِ اعترافاً صحيحاً، فمن ادّعى عقلاً ومعقولاً يناقض هذا الأصل الذي جاءت به الرسل عرفنا يقيناً أن معقوله فاسد، وأن دعواه باطلة، فإن العقل الصحيح لا يخالف الحق الصريح.

ومما يوضح هذا ويؤيده: أن الحق الذي جاءت به الرسل - خبراً وحكماً - حقٌّ واضحٌ معلومٌ معصومٌ، لا ينقسم إلى محمودٍ ومذمومٍ، بل كلُّه حقٌّ محمود، وأما ما ادّعاه المخالفون للرسل من المعقولات، فإنهم يعتمدون على المعقولات التي تنقسم إلى حق وباطل، ومحمود ومذموم باتفاق العقلاء.

وأهلها مع ذلك متباينون تبايناً عظيماً؛ كل طائفة لها معقولات تنصرها وتقدح في معقولات غيرهم، وهم في خبطٍ وخلطٍ وخلاف لا ينضبط، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

فهل اتباع هؤلاء الضالين الجاهلين المتخبطين أولى من اتباع رسل الله الذين هم أعلم الخلق، وأهدى الخلق، وأصدق الخلق، وأفضل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال؟ وقد سلموا من كل نقص وعيب وعثرة، وقد عُصموا في أقوالهم وأفعالهم، وقد أنزلت عليهم الكتب العظيمة من الرب العظيم، التي هي مادة الهدى ومنبع الرحمة والخير والرشد والنور، وأصل السعادة والفلاح.

وقد نوع الله البراهين الدالة على صدقهم، وصحة ما جاءوا به، وأنه الحق وما سواه ضلال، وأنه نور ورحمة وخير، وما سواه ظلمات وشرور وفساد: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٦ - ٨].

أما والله لقد وضحت السبل للسالكين، وظهرت براهين الحق وآياته للموقنين، وبان الهدى والنور اليقين للمستبصرين، وقامت الحجة على المعاندين.

ولهذا كان جميع الأشقياء المخالفون للرسول، يعترفون بأنهم خالفوا الرسل وخالفوا العقل، فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٠) فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠ - ١١].

من الأدلة الفطرة في قلوب العباد، وخصوصاً الأنبياء

ومن البراهين العقلية على وحدانية الله وغناه، وافتقار الخليقة كلها إليه: ما فطر الله عليه عباده، وخصوصاً خواصَّ الخلق من الأنبياء والرسل؛ أئمة الهدى ومصايح الدُّجى، وأهل العقول الوافية والألباب الرزينة، الذين هم الطبقة العليا من الخلق.

فإنهم فطروا على الاعتراف الكامل بوحداية الله، وأنه المقصود المعبود في كلِّ الأحوال، وصار هذا الأمر في قلوبهم أعظم الحقائق كلها، وأوضحها وأجلاها، وهي علوم بديهية ضرورية لا يمكن أحداً دفعها.

وليس عند المنكر لذلك ما يدفع هذا العلم اليقينيَّ والطريق البرهانيَّ إلا عدمُ علمه بذلك؛ لفساد إدراكه، واشتغاله بالعقائد الفاسدة، وإعراضه عن طلب الهدى.

ومن المعلوم المتفق عليه بين العقلاء: أن عدم العلم بالشيء ليس من الشُّبه في شيء، فضلاً عن أن يكون برهاناً يدفع أقوى البراهين وأجلها وأصدقها من العالمين الموقنين؛ الذين هم أعظم الخلق علوماً، وأبلغهم يقيناً، وأصدقهم وأبرهم عقولاً وأصفاهم أفئدة.

فهذا اليقين في قلوب هؤلاء - الذين هم سادات الأولين والآخرين - لا

يساويه ولا يقاربه شيء، ولهذا قالت الرسل لأمتهم: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتُهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيَلُّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية: ٦ - ٨].

فهذا العلم اليقيني البديهي الضروري المتفق عليه بين أهل العلم واليقين، وأعلى الخلق في كلِّ صفة كمال، وهو أكمل علم عندهم وأوضحه وأجلاه: محالٌّ وممتنع أن يقاربه علمٌ بشيء من الحقائق اليقينية أصلاً؛ فمن شك فيه أو تردد فقد برهن على نفسه بالجهل والضلال والحمق، وهو مكابرة واضحة، والله الموفق.

من الأدلة الإجماع من المسلمين وممن عرف حال النبي صلى الله عليه وسلم

ومن أعظم البراهين على أن الحق هو ما جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في جميع الحقائق الصحيحة النافعة: الإجماع من جميع المسلمين ومن عرف حال النبي صلى الله عليه وسلم، أنه أعلم الخلق على الإطلاق بالله وبالحقائق النافعة، وأعظمهم بياناً، وأوضحهم عبارةً، وأفصحهم وأنصحهم للخلق.

وهذه الأمور إذا كُملت - وقد كُملت - على وجه الكمال التام في محمد صلى الله عليه وسلم؛ بحيث لا يدانيه ولا يقاربه أحدٌ في العلم والبلاغة والنصح؛ علم يقيناً ضرورياً أن جميع ما جاء به هو الحق الذي لا ريب فيه. لا سيما في باب التوحيد، وبيانه العظيم في أن الله الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا؛ التي تفرد بها وتوحد، ولم يشاركه فيها مشارك، وهذا وحده برهان كافٍ شافٍ لمن له أدنى عقل أو ألقى السمع وهو شهيد.

فيا عجباً! لمن يعارض ما جاء به هذا النبي العظيم؛ الذي جاء بشريعة ما طرقت العالم أعظم منها ولا أكمل ولا أصح؛ بأقوال الماديين الذين سفهت

أحلامهم وفسدت عقولهم، واتضح أن جميع ما عارضوا به الأديان جهل وضلال ومكابرة صريحة، وذلك معروف بالتتبع لجميع المسائل التي عارضوا فيها الرسل.

قال تعالى في حق أمثالهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

والحاصل:

أن جميع الموجودات، وجميع الحوادث والمعارف والحركات، أدلة وبراهين على وحدانية رب الأرض والسموات.

من الذي أنشأ المخلوقات من العدم؟

من الذي دبر الأمور وصرفها؟

من الذي خلق السموات والأرض وحفظها بقدرته وأمسكها؟

من الذي خلق الآدمي من نطفة، فإذا هو خصيم مبين؟

من الذي أمات وأحيا وأسعد وأشقى، وأهلك الأمم الطاغية بأنواع

المثلاث، ونجّ الرسل وأتباعهم؟

إن في ذلك لعبراً وبراهين واضحات.

من الذي خلق الحب والنوى وفجّر الأرض بالأنهار والعيون؟ أليس

ذلك من آثار من يقول للشيء: كن فيكون؟

مَنْ الذي أعطى كُلَّ شيءٍ خَلَقَهُ اللّاتِقَ بهِ، ثم هدى كُلَّ مخلوقٍ إلى
مصالحه التي لا يصلح له سواها؟

مَنْ الذي علّم العلوم المتنوعة والفنون؟

مَنْ الذي أخرج الثمار الرطبة من يابس الغصون؟

مَنْ الذي أحكم الأشياء بغاية الحكمة وكمال الانتظام وأتقنها؟

مَنْ الذي أحسن كُلَّ شيءٍ صنعه، وشرع الشرائع وجعلها في غاية
الهدى والصلاح وأتقنها؟

مَنْ الذي سيّر السحاب الموقرة بالمياه العظيمة، فأصاب بها البلاد
والعباد؟ أليس ذلك الذي يعيد الخلق بعد موتهم إلى يوم الحشر والتناد؟

يا عجباً لنفوس تنكر الربّ والبعث؛ ما أضلّها وأعمّاها! كيف لا
تعترف بهذه القضية التي هي أعظم القضايا وأوضحها وأجلاها؟!

إلهٌ عظيم لم يزل إلهًا، ومَلِكٌ كبيرٌ مُلكه لا يتناهى، شَمِلَ العالمين برحمته
ورزقه فلا يترك ذرّةً ولا ينساها.

يسمع أنين المُدْنِفين، ويُجيب أسئلة السائلين، ويجود بمغفرته ورحمته
على التائبين.



الخاتمة

فنسألك يا الله! بأسمائك الحسنى وأوصافك العليا، أن ترزقنا إيماناً كاملاً، و يقيناً صادقاً، وتنفعنا بآياتك المسموعة، وآياتك المشهودة، وآياتك الأفقية، وآياتك النفسية؛ فإنها براهين للموقنين، وآيات للمستبصرين، وحجة على المعاندين والمكابرين، ورحمة منك وإحسان على الخلق أجمعين.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، الأحياء منهم والميتين.

آمين.

بخط: عبد الله السليمان السلطان

٢٠ جمادى الآخرة ١٣٧٠

قال ذلك الفقير إلى الله

عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

أصول الدين

تأليف
الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَاتُهَا

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

أما بعد:

فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقد فسر الله الإسلام في مواضع من كتابه مثل قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، ففسره بإسلام الوجه الذي هو انقياد الباطن والظاهر لله، خالصاً وهو محسن في هذا الانقياد بأن يكون على الصراط المستقيم، الذي هو طريق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا

جميع التصرفات، وحكيم في كل ما شرعه من الشرائع، فما خلق شيئاً عبثاً بل نفس خلقه صادر عن حكمته، وما أوجده من المخلوقات فإنه مشتمل على غاية الحكمة، وهو الحسن والإتقان والانتظام الذي تشهده الأبصار والبصائر، وتصريف الأمور كلها وتقليبها من حال إلى حال كله على سعته موافق للحكمة والرحمة والمصلحة، وكذلك ما شرعه من الشرائع وحكم به من الأحكام الشرعية بين عباده جميعه أصوله وفروعه وغاياته مشتمل على الحكمة التي لا غاية لها ولا منتهى لكمالها وحسنها.

وكما أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، وله الحكمة في خلقه وأمره وقضائه وشرعه، فإن ذلك كله مملوء من رحمته التي من آثارها الخيرات والبركات وأنواع المنافع، والمصالح الدينية والدنيوية الظاهرة والباطنة، وفيها من النعم والخيرات ما لا يعبر عنه المعبرون، ولا يقدر أن يصفه الواصفون، بل هي نعم لا تعد ولا تحصى ولا يحصي أحد ثناءً عليه: ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٨].

وهذا أمر قد اعترف به البر والفاجر؛ ولهذا أخبر الله عن المشركين أنهم يعترفون أن الله هو الخالق وحده، المالك وحده، المدبر وحده، المنعم وحده، وإنما يتخذون أوثانهم ومعبوداتهم، يزعمون أنها تقر بهم إلى الله زلفى، وإلا فهم يعلمون عجزها وفقرها وغير ذلك من صفات النقص، فإذا علم أن الله تعالى هو الذي له الأسماء العظيمة الحسنى، والصفات الكاملة العليا،

وأنة المتفرد بكل كمال وعظمة وجلال، وأنه الخالق الرازق المدبر، ومن سواه مخلوق فقير إليه مدبّر، وأن جميع النعم والفضل والخيرات والمنافع من الله وحده، وأنه الدافع لكل شر وسوء، فهو الذي يستحق أن يكون هو الإله المألوه وحده ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛

أي: هو إله أهل السماء وإله أهل الأرض، الذي يعظمه ويحبه ويدعوه أهل السماء والأرض دعاء عبادة ودعاء مسألة، وهذا هو الغاية والمقصود الأعظم من خلق جميع المكلفين ليعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله، وليعبدوه وحده لا شريك له فيخلصوا له الدين، يقومون بالإيمان والإسلام والإحسان على الوجه الذي ينبغي، على وجه الإخلاص والذل لله الواحد القهار، وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه جميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فأخبر أنه أوحى إلى جميع رسله أن يعترفوا بإلهيته وحده، وأن يقوموا بعبوديته ظاهراً وباطناً، وهذه العبودية التي أمر الله بها عباده؛ هي طاعته وطاعة رسوله بتصديق خبر الله ورسوله، وامثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهْيِ الله ورسوله، وذلك هو القيام بحقه تعالى على عباده، وبالقيام بحقوق العباد بحسب حالهم ومراتبهم، وذلك كله مبناه على العدل.

فإن أصل العدل وأساسه عبادة الله وحده لا شريك له، فإن توحيدَه أوجب الواجبات، وأفرض الفرائض شرعاً وعقلاً، والإخلال بالإخلاص أظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وأي ظلم أعظم من ظلم من تفرد الله بخلقه وتدبيره فعبد سواه، وتفرد بالإحسان إليه وإيصال الفضل إليه بكل سبيل، فصرف شكره لغيره.

وإذا كان الشرك أظلم الظلم، فما الظن بما هو أفضح من الشرك، وهو الإنكار والإلحاد والاستكبار عن عبادته أو عن الاعتراف به، فكل من لم يؤمن بالله ولم يخلص أعماله لله فهو ظالم، على تفاوت في عظمة الظلم وشناعته، وكذلك حكمه وأحكامه بين عباده في المعاملات والحقوق الخاصة والعامة على كثرتها وتبهرها، كل ذلك مبني على العدل الذي تعترف بحسنه وكماله العقول السليمة والفطر المستقيمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وقد ذكر الله أصول العدل والإحسان في أصول الدين وفروعه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنْتُمْ مَآ حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ عَلَىٰكُمْ أَلا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، إلى قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ صَلَّى لِعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

فتأمل هذه الأوامر وما فيها من الخيرات، وما تضمنته من أداء الحقوق التي هي أفرض الحقوق شرعاً، وعقلاً، وما نهت عنه من أصناف المحرمات

المحتوية على الظلم، والشر، والضرر، والفساد، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فقد جمعت هذه الآية الكريمة الأمر بكل عدل وإحسان وخير، وحثت على أداء الحقوق العامة والخاصة، ونهت عن كل منكر وفحشاء في حق الله، وبغى على عباد الله بدمائهم، وأمواهم، وأعراضهم، وقد جمع الله أيضاً أصول العدل في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

كما جمع أصول الشر والظلم في الآية الأخرى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وهذه المحرمات في كل شريعة، وكل زمان ومكان؛ لأن الشر والضرر والفساد ملازم لها حيثما كانت، وقال تعالى في بيان أصول البر والتقوى التي هي روح العدل: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَعَاقَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَعَاقَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

فهذه الآيات الكريمة اشتملت على أصول الشريعة وبيان صدقها وعظمتها وكمالها ومراعاتها للعدل والقسط والمصالح في كل زمان ومكان، وفي كل حالة من الأحوال، وتفاصيل الشريعة كلها تفصيل لما نصّت عليه هذه الآيات، وذلك أكبر برهان على أنها ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. عالم بمصالح عباده، رحيم بهم حيث حثهم على ما ينفعهم، وحذرهم عما يضرهم، وأرشدهم إلى كل خير وهدى، ونهاهم عن كل شر وسوء وردى، وهي كلها حق مصدق، يعترف أولوا الألباب بها، وتخضع العقول الصحيحة لها، ويعلم أن كل ما ناقضها وخالفها فإنه شر وغي وضلال ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

فأخبر أن الذين أوتوا العلم الحقيقي هم الذين يرون ويعترفون أن الذي أنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الحق في ذاته وأوصافه، وأنه يهدي إلى الصراط المستقيم الموصل إلى الله العزيز الحميد، يعني: ويرون أن ما خالفه وناقضه هو الباطل في ذاته وأوصافه، وما يوصل إليه من غي وضلال، وجهل وشر، فهو تعالى الحق، ودينه حق، ووعدده حق، وقوله حق، وما خالف ذلك باطل.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠]،

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، والحق هو الصلاح وبه الصلاح المطلق، وضده هو الفساد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فأخبر أن الحق لو كان تابعاً لأهواء كل مخالف للرسول لحصل منه الفساد العام والضرر العظيم، فكل شريعة وقانون وسياسة للمخلوق تنافي ما جاء به الرسول، فإن شرها مستطير، وضررها كبير، والتجربة والمشاهدة أكبر شاهد على ذلك، وحيث كان الحق وصف الدين اللازم الملازم قاوم كل ما عارضه من جيوش الباطل المتكاثرة الجبارة، فصمد لها وقاومها وأبطلها ومحققها، وهو لا يزال - والله الحمد - في كل وقت مستعداً لمقاومات المعتدين ومنازلة الظالمين وتحدي كل معتد كفار أثيم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

فانظر إلى حالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما عانى من مقاومات المبطلين، وكيف أيده الله بالحق على جميع طوائف الظالمين مع حنقهم وتكالبهم وتناصرهم على باطلهم حتى خرج منتصراً بالحق الذي أيده الله.

قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ

يَنْخَطِفُكُمُ النَّاسُ فَاَوْنِكُمْ وَيَأْتِكُمْ بِنَصْرِهِ وَرِزْقِكُمْ مِمَّنْ أَلَطَّيْتُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿ [الأنفال: ٢٦]، ﴿ إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا ثَانِثَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ
إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ
الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ [التوبة: ٤٠].

ثم تأمل ما قام به الخلفاء الراشدون ومن معهم من الصحابة الأخيار،
ومن بعدهم من الملوك العادلين، وكيف فتحوا القلوب بالعلم والإيمان،
وفتحوا الأمصار، واحق معهم ملازم لهم والنصر من الله مؤيدهم، ولم
يزل الدين الإسلامي قد خضع له أهل المشارق والمغرب، وقد تقبلوه
وقبلوه بما فيه من العدل والرحمة والخير الذي لا يوجد في غيره.

فلما تحلوا بعد ذلك عن هذا الدين الحق شيئاً فشيئاً تقلص عزهم،
وسلطت عليهم الأعداء من كل مكان، وهو مع كثرة الأعداء وشدة حنقهم
واتفاقهم على محقه وإبطاله، ومع قلة أهله الحقيقيين ووقوع التخاذل بين
المنتسبين إليه - مع ذلك لم يزل - والله الحمد - قائم الأصول، محفوظاً بحفظ
الله، مقاوماً كل جيش يغزوه من أصناف الكفار المحاربين المعلنين محاربتة،
ومن الزنادقة المنافيين للملحدين الذين يظهرون إحداهم، والذين يخفونه
ويعملون في الباطن على القضاء عليه، ولكنهم في كل وقت مخذولون بيدون
المقاومات المتنوعة فيظهر للخلق باطلهم وإحداهم ومكرهم.

ولا يروج باطلهم إلا على من لا بصيرة له ولا حق معه، ولما علموا بذلك وعرفوا أنه ليس في إمكانهم مقاومة الحق سعوا في إضعاف الحق من قلوب من ينتسب إليه، ففتحوا المدارس التي تحت سيطرتهم، وطردها عنها علوم الدين أو جعلوه اسمًا بلا مسمى، ليتمكنوا من بذر باطلهم في قلوب المتعلمين فيها، الذين ليس عندهم علم بالحق يقاوم مكر هؤلاء وخذاعهم.

وكان هذا من أكبر النكبات التي أصيب بها المسلمون، ومن أكبر السلاح لأعداء الإسلام، حتى صار الخريج منها قد تسلح بسلاح أعداء الإسلام، وصار أكبر عون على من ينتسب إليهم دينًا وقومية ووطنًا، ففضل دين الأجانب الأعداء وقوميتهم ووطنيتهم على دينه وقومه ووطنه، فزال دينه وفسدت أخلاقه وذهبت مروءته وإنسانيته، فيتعين على كل أحد السعي في إصلاح التعليم، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتعاليم الدينية ومراعاة الأخلاق والمحافظة على المتعلمين وملاحظتهم؛ فإن إصلاح التعليم هو السبب الوحيد لحفظ الدين، ومقاومة كل شر وفساد، وسبب لصالح الأمور كلها، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦].

وذلك بالتعليم والإلزام بالحق علمًا وعملاً، فمن أهمل أولاده ومن [يقوم] عليهم مما هو مسترعى عليه، فقد عصى أمر الله وأمر رسوله، وعرضهم للعقوبات، فكيف إذا أهملهم عن التعاليم النافعة، والآداب

الصالحة، وأشغلهم بضدها من التعاليم الضارة؟ فما أعظم خسارة من خسر أولاده، بل ما أعظم حسرة من كان أولاده الذين كان يرجو نفعهم بإهماله إياهم، وتوجيههم للعلوم الضارة، قد صاروا أعظم نكبة عليه وخسر دينه ودنياه.

وقد صح عن النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، وذلك بالتعاليم المنحرفة، وهذه المدارس الإلحادية تخرج الناشئين فيها من الأديان كلها؛ لأن هذا هو الغرض المقصود بها، ولأنها تلقي في أذهانهم قاعدة من أخبت أو أخبت أصول الإلحاد؛ وهي أن العلم الحقيقي عندهم ما يدرك بالحواس فقط، وما لم يدرك بالحواس فليس عندهم بعلم، ولا يعد من الحقائق الصحيحة.

وهذه القاعدة الخبيثة خالفوا فيها جميع الأديان الصحيحة، بل خالفوا فيها جميع العقلاء، فإن مدارك العلم كثيرة متنوعة؛ مدارك الحس ومدركات العقل ومدركات الأخبار الصحيحة، والنوعان الأخيران مدركاتهما أعظم وأكمل وأوسع، فإذا نفيت لم يبق إلا المدركات التي تدرك بالحس، وهي دائرة ضيقة توقع أهلها في المهالك، فأعظم آثارها وأبطلها إنكار علوم الغيب كلها؛ وهو إنكار جميع ما أخبرت به الرسل، والكتب المنزلة من السماء من توحيد الله، وتفرد به بصفات الكمال، وتوحده بالخلق والتدبير، وإنكار البعث والجزاء في الدار الآخرة، وإنكار الملائكة والجن،

وجميع ما أخبر الله به وأخبرت به الرسل من أنباء الغيب الواسعة المنتشرة التي قامت البراهين المتنوعة على حقها وصدقها وعدم الريب فيها، فأنكرها هؤلاء الملحدون، كما أنكرها أسلافهم الدهريون الذين قالوا:

﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجن: ٢٤].

وقد علم أن آيات التوحيد، وآيات البعث، وآيات صدق الرسل والبراهين الدالة على ذلك التي لا يمكن إحصاؤها كلها تبطل قول هؤلاء الملحدين، وتخبر أنهم كما خرجوا من الدين خرجوا من العقل الصحيح، وخالفوا فطرة الله التي فطر الله عباده عليها، فجميع ما أخبر الله به في كتبه وعلى السنة رسله من أمور الغيب التي هي أعلى أنواع الصدق أنكرها هؤلاء الملاحدة.

ومن المعلوم عند العقلاء المعتبرين أن من لم يؤمن بذلك الحق المبين الذي قامت الأدلة والبراهين بصدقه وحقيقته ويقينه لم يكن عنده علم وحق يؤمن به ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٦﴾ وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

[الجن: ٦ - ٨].

وقد تحدث الرسل عليهم الصلاة والسلام جميع من كذبهم أن يعارضوا ما جاءوا به من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فظهر عجز المكذبين، وبانت مكابرتهم، وأنهم ليسوا على شيء، وأنهم كانوا

كاذبين، وقد تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأخبر أنهم ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، والتحدي قائم منذ نزل القرآن وإلى أن تقوم الساعة، وعَجَزُ المعارضين المكذبين قد ظهر لكل أحد، وهذا من أعظم البراهين الموجبة لتصديق جميع ما أخبر به من علوم الغيب والشهادة.

كما أن من أعظم البراهين أحكام هذا الدين، وصدق ما جاء به من الأخبار عن الأولين والآخرين، وعن جميع أمور الغيب، وأنه لم يأت ولن يأتي علم صحيح لا محسوس ولا معقول ينقض خبراً من أخباره، كما أن أحكامه أعدل الأحكام وأهداها وأقومها، وبها الصلاح المطلق في كل زمان ومكان، وقد بان لكل عاقل أن الأمور العامة والخاصة لا يمكن صلاحها واستقامتها واعتدالها، حتى تطبق على أحكام الله بين عباده ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ولا ينكر هذا ولا يكابر فيه إلا أحد رجلين:

- إما معاند مكابر ينكر الحقائق الواضحة والبراهين الساطعة.

- وإما ضال جاهل من أعظم الضالين.

فالعناد والضلال لا يستغرب على صاحبهما إنكار أعظم آيات الله، وأعظم البراهين والمعجزات الدالة على صدق الرسل وحقية ما جاءوا به، فهؤلاء داخلون في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٠) إِذِ الْأَغْلُلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ

يُسْحَبُونَ ﴿ الآيات [غافر: ٧٠-٧١]، فهم كذبوا بجميع آيات الله التي هي
أبين الآيات وأعظمها وأوضحها، وبما أرسل الله به رسله من الحق النافع
والصدق.

فصل

وحيث كان الملحدون المكذبون بآيات الله، وبما أرسل به رسله قد علموا أنه متى تقابل ما جاءت به الرسل من الحق مع باطلهم لم يكن لباطلهم أدنى ثبوت بل اضمحل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، فحيث علموا بهذا الأمر مكروا مكراً كبيراً.

﴿وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤٦) ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدِهِ، رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: ٤٦-٤٧]؛ الذي من جملته ظهور الحق على الباطل وانتصاره في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

فمن أعظم مكرهم ما أشرت إليه سابقاً بإضعاف علوم الدين أو منعها من مدارسهم، ومنها أنهم قالوا: يجب أن تكون الأفكار حرة وألا تتقيد بشيء من القيود؛ وذلك لقصد التحلل عما جاءت به الرسل والأديان الصحيحة؛ لأنهم إذا زعموا أن لكل أحد فكره، وأنه مهما خطر بباله من الأفكار، والعقائد الهدامة فله أن يبوح بها، ويدعو إليها، وألا يعارضها بعقيدة صحيحة ولا فاسدة، كان مضمون هذا وجوب التحلل عن الأديان، وعدم التقيد بها، وهذا هو الإلحاد والزندقة.

وهؤلاء أعظم جرماً وأشد طغياناً من إخوانهم السابقين الذين ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فأولئك معهم نوع اعتراف بالله صحبه الاستكبار عن الانقياد للرسول، وأما هؤلاء فقلوبهم منكرة للحق الذي جاءت به الرسل وهم مستكبرون عن الانقياد لرسول الله وكتبه، بل مستكبرون عن الإيمان بالله.

ومن المعلوم الذي لا يتهمى فيه العقلاء أن إطلاق الحرية للأفكار، وعدم تقيدها بالحق الثابت الذي قامت البراهين على صدقه وحقيقته هو الكفر بالرسول، وهو الفوضى، الذي يؤدي بأهله إلى الهلاك الدنيوي قبل الهلاك الأخروي، ففوضوية الأفكار هي فوضوية الأفعال، فعلى ذلك فليفعل كل أحد ما أراد من فسق وفجور وتهتك، وليطلق لحرته ما شاءت نفسه الأمانة بالسوء من فحشاء ومنكر وبغي، لا يتقيد بشريعة ولا بمروءة ولا بإنسانية، بل يتنقل من طور الإنسانية إلى طور البهائم، بل إلى طور الشياطين وهذا ما أرادوه، وهذا ما وصلوا إليه - المتوغلون منهم - والباقون يسعون خلفهم.

ثم إنه من المعلوم أن حرية الأفكار وإعطاء كل أحد أن يتكلم بما يريد ويشتهي، والإرادات متباينة، والأغراض مختلفة أن في هذا هلاك الحكومات والشعوب، فالخلق في غاية الضرورة إلى ضابط يضبطهم، وإلى قوانين صارمة قوية تحجزهم عن الشرور المتنوعة، ومتى أعطوا حريتهم مرجت أقوالهم، واختلت أعمالهم، وتباينت أفعالهم فوقعوا في

الفوضى المهلكة، والشروع القاتلة، والأمم التي تعمل على هذا هي ساعية في طريق هلاكها الدنيوي قبل الهلاك الأخرى.

فالأفكار الصحيحة هي الأفكار السليمة المتقيدة بالحق التي غايتها الحق وسيرها مع الحق، وهي الأفكار التي دعا الله عباده إلى التفكير فيها في آياته المتلوة وآياته المشهودة؛ ليُعرف الحق ويُعمل بالحق، وذلك هو الصلاح للظاهر والباطن، وحيث قد علم أهل العلم والهدى والرشد أن ما جاء به الرسول هو الحق، وهو الذي يهدي إلى كل خير، كان الواجب المتعين والفرض الأكيد التقيد بهذا الحق علمًا وإرادة وعملاً، فتكون الأفكار حائمة حول هذا الحق المبين لاستخراج علومه ومعارفه النافعة، وحول إرشاداته ومواعظه لسلوك الصراط المستقيم.

وهذا التقيد الذي هو أفرض الفروض على المكلفين هو ينبوع العلم وأصل الخير، ومدار صلاح الدين والدنيا عليه، وهو المانع من الفوضى، ومن الانطلاق في الهلاك، فيتقيد العبد بهذا الحق، ولا يتقيد بأي قول يعارضه، ولا بأي عمل ينافيه ولو صدر من أكابر الناس؛ لأن ما سوى الرسول **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** غير معصوم.

وأما ما جاء به الكتاب والسنة من الحقائق في الأصول والفروع فهو محكم معصوم يدل على كمال اليقين العلمي واليقين العملي ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا** ﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا** ﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿ **وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** ﴾ [الأحزاب: ٤]، ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ**

يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿ [الإسراء: ٩]، ﴿ سَرُّهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي
 أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا
 عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٦].

وإذا أردت أن تعرف الفرق العظيم بين من يدعو إلى تحرير الأفكار
 من كل القيود، وبين من يلتزم الحق الذي جاءت به الرسل ولا يبالي بمن
 خالف ذلك، وبين من يلتزم العمل بالحق، وبين من يمشي بعمله مع
 غريزته ودواعي نفسه فاضرب لذلك مثلين:

أحدهما: من قلبه خال من التزام الحق والعمل به، وهو يجري في أعماله
 وأقواله على مقتضى ما تدعوه إليه نفسه من الإرادات المتنوعة، فإنه لا
 يبالي بالظلم والبغي والفحشاء والمنكر، فإن النفس أمارة بالسوء، فمن
 أطاعها طاعة عمياء قادته إلى الهلاك والخسار، تجد مثل هذا أفكاره
 متضاربة ونظرياته متناقضة وعلومه غير صحيحة، فهو في أمر مريج في
 فكره وسعيه وعمله وجميع تصرفاته.

والثاني من الرجلين: رجل عرف الحق والتزمه، وعرف أن ما جاءت
 به الرسل حق، وأن الكتاب القرآن وسنة محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** جاء بكل
 علم صحيح، وبكل حق وصدق، وبكل هدى ورشاد، وبكل خير عاجل
 وآجل؛ فحصر أفكاره في هذا الميدان الجليل، واستخرج من كنوز الكتاب
 والسنة كل حق وهدى ورشد، وتحلت نفسه بكل خلق جميل يدعو إليه
 الشرع، وتحلت عن كل خلق رذيل، فصار عارفاً بالحق، عاملاً بالحق، فهذا

لا تسأل عما يحصل له من المعارف الجليلة، والعلوم اليقينية، والأخلاق الجميلة، والسير في جميع تصرفاته على العدل الذي هو الصراط المستقيم، فهل يستوي هذا وذاك؟

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المك: ٢٢].

فالأول: ضال غاو ساع إلى الهلاك والخسران.

والثاني: مهتد عالم بالحق، عامل به يسعى إلى كل خير وبر وكرامة.

والمقصود: أن الملحددين والمغتر بهم أبدوا وأعادوا في الدعوة إلى حرية الأفكار، والغرض من هذا: التحلل من أديان الرسل، ومن الأخلاق الجميلة؛ لتنتلق النفوس فيما شاءت فتكون البهائم أحسن حالاً منها، والعقول والأفكار متفاوتة في إدراكها، وفي مقاصدها وفي غاياتها كالإرادات، بل الإرادات تبع الأفكار، ولو أنهم قيدوا أفكارهم بالحق الذي جاءت به الرسل وإراداتهم باتباع ما نزل الله، لكان خيراً لهم وأقوم.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»، فمن كان هواه تبعاً لما جاء به الرسول لا يزيغ عنه، فهو المؤمن الحقيقي، وهو الذي قد هدي للتي هي أقوم في علومه ومعارفه وأخلاقه،

وهو الذي اطمأنت نفسه إلى الصدق والحق، فإن الصدق طمأنينة،
والكذب ريبة، والباطل صاحبه في أمر مريج.

فصل

ومما رَوَّج به الملحدون باطلهم وعلومهم المخالفة للدين أنهم زخرفوا لها العبارات، فسموها تجديداً ورقياً وتقدماً ونحوها من الأسماء التي يغرر بها ويغتر بها من لا بصيرة له، وسموا الحق الذي جاءت به الرسل جموداً ورجعية ورجوعاً إلى الوراء وتحديراً، كما قال تعالى عن أسلافهم:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾
وَلِنَصِّغَنَّ إِلَيْهِ أَفْعَدَةَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

فأخبر تعالى أن هذا دأب أعداء الرسل في كل زمان أنهم يزخرفون العبارات لتحسين باطلهم وتقييح ما جاءت به الرسل، وأنهم يتواصون بذلك، ويفترون على الله الكذب، وأنه يغتر به من لا علم له ولا بصيرة ولا إيمان، فهؤلاء أخذوا كل ما افتراه الأولون من أسلافهم المكذبين، وزادوا زيادات، كم اصطادوا فيها من ضعفاء البصائر.

وليس ما جاءت به الرسل جموداً ولا رجوعاً إلى الوراء، وإنما هو الحق والنور والحياة والرشد الذي لا حياة للوجود ولا للقلوب إلا به، ولا نور إلا باقتباس نوره، وهو الموقظ للهمم والعزائم إلى كل خصلة حميدة،

وإلى كل رقي صحيح وتقدم نافع، فإن من أصول الشريعة الكبرى العمل بالأسباب النافعة، والحث على كل عمل ومصلحة، والاستعانة بالله في تحقيق ذلك، ومن المعلوم أن من تحقق بهذين الوصفين: بذل المجهود والاستعانة بالمعبود، فإنه لا يزال في تقدم مطرد في إصلاح الدين، وإصلاح الدنيا المعينة على الدين.

في الصحيح عنه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أنه قال: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز».

وهذا شامل للأمر بالحرص على ما ينفع في العاجل والآجل، وكم في كتاب الله من الأمر بالأعمال الصالحة النافعة، والأمر بالاستعانة بالله التي هي روح الأعمال، وبها قوامها، فإن من استعان بالله كفاه وأعانته وقواه وأيده بروح منه **﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [الطلاق: ٣].

وقال تعالى في الأمر بالصبر على الجهاد ومقاومة الأعداء والترغيب في ثواب ذلك: **﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾** [النساء: ١٠٤]، **﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾** [الأنفال: ٤٦]، فهذا الأمر بملازمة الصبر على كل عمل نافع، والبشارة لهم بمعية الله ومعونته.

وأما العلوم المادية الخالية من روح الدين وروحه، فإنها تقدم إلى الهلاك والدمار، وتقدم إلى هدم كل خلق جميل والاتصاف بكل خلق رذيل، والمشاهدة والحس أكبر شاهد على هذا، وذلك أنه من الممتنع المحال أن

يحصل التقدم الصحيح إلا إذا صحبه الدين الصحيح الملازم للحق، فإن الباطل وإن كان له نوع صولة، فأخره الزوال والاضمحلال، ومنتهاه الخسار والهلاك والتبار.

فعند هؤلاء الملحدين أن التجديد والرقي هو الاندماج في معنوية الأجانب أعداء الأديان كلها، وزوال شخصياتهم في شخصيات أولئك، والتشبه بهم في أخلاقهم ولباسهم وعوائدهم الدقيقة والجليلة، و«من تشبه بقوم فهو منهم»، فيرون البقاء على أخلاق دينهم وقومهم التي هي الأخلاق العالية، يرون البقاء عليها جمودًا، والانحلال عنها هو الرقي، فاستبدلوا الأدنى الخسيس بالأعلى الكامل النفيس، فصاروا مع أعدائهم في ظاهرهم وباطنهم، وصاروا بذلك أكبر سلاح للأعداء على دينهم وقومهم، وبهذه الحال تنحل معنوياتهم، ويندمجون في غيرهم في كل شيء، وهذا أبلغ ما يريده الأعداء من المتسمين بالإسلام.

فصل

ومما يروج به المنحرفون باطلهم لهجهم الشديد بالثقافة العصرية زاعمين أن الأخلاق لا تتهدب ولا تتعدل إلا بها، ويطنون في مدحها والثناء عليها ومدح المتصفين بها، وذم من لم تكن له هذه الثقافة، والسخرية منه، وهم يفسرونها تفاسير متباينة منحرفة، كل يتكلم بما يخطر له؛ لأن العلوم إذا كانت فوضى والأخلاق تتبعها هكذا يكون أهلها لا يتفوقون في نظرياتهم وأعمالهم وأخلاقهم، ولا يمكننا شرح ما يقولونه عن هذه الثقافة المنحرفة، ولكنه قد علم أهل العلم والحجا وأهل العقول الراقية أن الثقافة التي يلهجون بها هبوط أخلاق، وذهاب المعنويات الصحيحة والزهو والعجب والكبر الذي هو أكبر داء يبتلى به العبد، وإنما الثقافة الصحيحة والتهديب النافع هو ما جاء به الدين الإسلامي، فإنه محال أن تتهدب النفوس وتكتسب الفضائل بعلوم المادة المحضنة وأعمالها، والمشاهدة أكبر شاهد على ذلك، فإنها مع تطورها وتبحرها عجزت كل العجز عن إصلاح الأخلاق واكتسابها الفضائل، وعجزت عن ترفعها عن الرذائل، وإنما الذي يتكفل بهذا الإصلاح ويتولى هذا التهديب الصحيح، ويوجه الأفكار إلى العلوم الصادقة والأعمال إلى الخير والهدى والصلاح، ويزجرها عن كل شر هو ما جاء به الدين الإسلامي، فهو مصلح للظاهر

والباطن، للعقائد والأخلاق والأعمال، حاث على كل فضيلة، زاجر عن كل رذيلة، فروح ما دعا إليه الدين الإسلامي بالإيمان بالغيب؛ المتضمن للإيمان بالله العظيم، وما له من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا، والأفعال الحميدة، والتصارييف السديدة، ويتضمن الإيمان بالجزاء العاجل والآجل عن الأعمال الصالحة، والأعمال السيئة التي لا يعرف تفاصيلها إلا من جهة الرسل، وهي التي تزرع في القلوب الرغبة في فعل الفضائل والخيرات، والتنافس في اكتساب الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى الخلق، وتزرع فيها كراهة الشرور والرذائل، وهي التي يكون لها التأثير العظيم في إصلاح الأفراد والجماعة، قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّأَ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ [الحجرات: ٧-٨].

فهو الذي يوجه الأفكار والإرادات والأعمال إلى كل خير، ويزجرها عن كل ضرر، ويأمرها بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهاها عن الفحشاء والمنكر والبغي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم.

وأما علوم المادة المحضة: فإنها جافة لا تنهض بأصحابها إلى مكرمة، ولا تزجرهم عن منكر وسوء، وإنما نفوسهم آلية محضة أحسن من نفوس السباع الضارية، لا تسعى إلا إلى أغراضها مهما كانت - فكم بين قلب

مملوء من الإيمان بالله، ومن الرغبة في ثوابه ورضاه، والخشية من سخطه وعقابه، وأخلاقه أكمل الأخلاق وأفضلها، قد أثر هذا الإيمان وتوابعه في توجهه وتوجيهه وسعيه، فكانت أعماله سالحة، وكان مخلصاً لله ومؤدياً لحقوق عباده يرضى العهود والأمانات، ويحترم الحقوق والمعاملات، قد اطمأن كل أحد في ثقته وأمانته وقيامه بما عليه من الحقوق - كم بين هذا وبين من هو بضده ليس في قلبه من الإيمان مثقال ذرة، ولا رغبة في الخير ورهبة من الشر، لا يرضى العهود والأمانات، ولا يطمئن إلى ثقته كل من علمه وخبر حاله، ولا عنده خشية لله تردعه عن المحرمات والخيانات، قد هبطت به أخلاقه إلى أسفل سافلين، ثقافته وهيمته مصروفة إلى تنميق بدنه وشعره، وتجميل لباسه وهيتته وكلامه، وليس وراء هذا شيء إلا العار والدمار لما هو عليه من الأخلاق الهدامة لأحواله ولمن يتصل به، فبين هذا وهذا كما بين السماء والأرض، وهذا الفرق العظيم عائد إلى الاتصاف بالثقافة العصرية الجافة، أو الثقافة الدينية التي روحها الرحمة والعدل والقسط والأمانة والوفاء بالحقوق.

فأعظم نعمة ينعم الله بها على العبد أن يكون عنده بصيرة يبصر بها الأشياء على ما هي عليه، فيعرف الحق ويعمل به، ويعرف الباطل فيدعه، والله هو الموفق وحده، ولا تنظر إلى من تسمى بالإسلام ونبذ أخلاقه وراء ظهره، وتحتج به على الإسلام والمسلمين في صفته وجموده وهبوط أخلاقه، فإن الإسلام والمسلمين الحقيقيين يتبرءون ممن هذه حاله، وإن

تسمى بالإسلام، وليس له منه إلا رسمه، فإن الدين الإسلامي دين الرفعة والعزة والرقى الصحيح، فتعاليمه وإرشاداته وأخلاقه وأعماله كلها في غاية الإحكام والانتظام، وهي الغاية في توجيه المتصفيين بها إلى كل خير وصالح وإصلاح، كما هو معروف عند كل أحد ما كان عليه المسلمون الأولون من الكمال، والقيام بجميع المقومات الدينية والدينية، وبهم يضرب المثل في الكمال الإنساني الذي ليس له نظير، فمن أراد أن يعرف تأثيرات الدين الجميلة فليُنظر إلى هؤلاء، وأما من أراد المكابرة والتغريير، فله نظر غير هذا، والله المستعان.

فصل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّكِيمُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

أخبر تعالى في هذه الآيات وغيرها أن المكذبين بالرسول والجاحدين لآيات الله، إنما حملهم على ذلك الكبر الذي في صدورهم واحتقارهم واستهزاؤهم بما جاءتهم به الرسل وفرحهم بعلومهم المنافية لعلوم الرسل، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

وهذا الذي ذكره الله هو أفضع وأشنع آثار الكبر الذي هو شر الأخلاق، الذي من في قلبه مثقال حبة منه لا يدخل الجنة، وهكذا خلف هؤلاء السلف الطالح؛ فإنهم قد اتفقت كلمة سفهائهم ومعانديهم أنهم لا يؤمنون، ولا يتقادون إلا لما دخل تحت حواسهم وتجاربهم، ونظرياتهم، وما سوى ذلك أنكروه، وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد علم عقلاً وشرعاً وفطرة أن العلوم والحقائق التي لا تدخل تحت الحواس، وتدرّك بالعلوم التي جاءت بها الرسل، وبالعقول والفطر السليمة قد علم أنها أكمل العلوم وأقواها وأنفعها، فهم جحدوها رأساً إلا ما أحاطت به معارفهم الضئيلة مما يدخل تحت الحواس، فلو فُرِضَ الفرض المحال أن جميع العلوم المدركة بالحواس قد أحاطوا بها، لكانت ضئيلة جداً بالنسبة إلى علوم الرسل ومدركات العقول، فكيف وما أدركوه من علوم الطبيعة والكون قليل بالنسبة إلى ما لم يعرفوه، وهم معترفون بذلك، ولا يزالون يحدثون نظريات وتجارب يحكمون عليها، ثم بعد ذلك يتبين لهم أخطاؤها، ويستأنفون غيرها وهكذا، فإذا كان هذا قصورهم وتقصيرهم في علوم المادة التي إننا تكبروا وافتخروا بعلمها، فكيف بالعلوم العظيمة التي لم يشموا رائحتها؛ علوم الشرع وأصوله وفروعه، وعلوم الغيب وتفاصيل ما أخبر الله به وأخبرت به رسله؟! قال تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [الآية [فصلت: ٥٣].

فقد أرى الله عباده في هذه الأوقات من مخترعاتهم، ومما عملته أيديهم من الخوارق والآيات ما يزداد به المؤمن إيماناً، وتقوم به الحجة على المعاند المكابر.

فهذه الكهرباء وما نتج عنها من الأعمال العظيمة المعروفة، وهي من أعمال البشر الذي علم الله الإنسان ما لم يعلم، فقبل أن يشاهدوها

لو قيل لهم عن بعض أفعالها: إنها ستكون وتقع، لبادروا بالإنكار كما بادر أسلافهم من المكذبين للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين حدثهم بالإسراء والمعراج، مع أنها من آيات الرسل وخوارقهم التي لا تزال يشاهد نظيرها أو ما يقاربها، فإذا كانوا يجحدون لما لم يحيطوا به علمًا، وقد حدث من المخترعات البشرية ما يكذبهم، ويبطل الأصل الذي به يحتجون مع أن هذه الخوارق من صنع الآدميين - والله هو الذي علمهم إياها - فكيف ينكرون ما أخبر الله به وأخبرت به الرسل من أمور الغيب؟ إذ لم تدخل تحت مداركهم ومعلوماتهم، وعجزت عقولهم عن إدراكها، وهذه الحالة هي دأب الأمم المكذبين للرسل إذا أخبرتهم الرسل بما لم يعرفوه أنكروه وجحدوه واستكبروا عنه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ٣٩]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَى رَجُلٍ يَنْتَشِكُمْ إِذَا مَرْقَمْتُمْ كُلَّ مُمْرَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿٧﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧ - ٨].

وهل أعظم شقاءً وضلالاً ممن ينكر قدرة الخلاق العظيم، وهو يشاهد من آياته في الآفاق والأنفس أمورًا كثيرة تبطل حجته، وتزهق باطله:

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ ﴿٥٢﴾ أَنْوَاصُوا بِهِ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣].

فطغيانهم الشنيع وكبرهم البليغ حملهم على هذا القول الفظيع، وهم

أحق بالجنون؛ إذ زعموا أن هذه الموجودات العظيمة التي هي في غاية الإتيان والانتظام في خلقها وتصريفها وتديرها، وغاياتها الحميدة، وحكمها البديعة - زعموا أنها وليدة المصادفة وآثار الطبيعة، من غير خالق خلقها، ولا مبدع أبدعها وأتقنها، مجرد ما ينظر العاقل ويتصور قولهم هذا يعلم أنهم قد ابتلوا ببلية هي أعظم البلايا، وكيف سولت لهم نفوسهم أن يتفوهوا بهذا القول الذي هو أكبر معبر عن ضلالهم وجهلهم وحمقتهم، بل هو من أقوال المجانين الذين يهدون بما لا يدرون، فمن تأمل بعض المخلوقات وما أودعها الله من الخلق العجيب، والنظام المحكم والتدابير العجيبة جزم جزمًا لا يُمتري فيه بكذب هؤلاء وافترائهم في جحدهم، ومكابرتهم للمحسوسات، فضلًا عن المعقولات وما جاءت به الرسل.

قال تعالى: ﴿ قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٣٥) أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿ [الطور: ٣٥ - ٣٦]، ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (٤٩) ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيَنْغَضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴿ [الإسراء: ٤٩ - ٥١]؛ أي: من الكبر الذي في صدورهم، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ الآيات [الإسراء: ٥١].

الدِّينُ الصَّحِيحُ

مُحَلِّقٌ جَمِيعُ الْمَشَاكِلِ

تَأَلِيفُ
الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ

عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ

رَحِمَهُ اللَّهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذه كلمات تتعلق بموضوع الدين الإسلامي، وأنه يهدي للتي هي أقوم وأصلح، ويرشد العباد في عقائده وأخلاقه ومعاملاته وتوجيهاته وتأسيساته إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وبيان أنه لا سبيل إلى إصلاح شيء من أمور الخلق الإصلاح التام إلا به، وبيان أن جميع النظم المخالفة لدين الإسلام لا يستقيم بها دين ولا دنيا إلا إذا استمدت من تعاليم الدين.

وهذا الذي قلناه قد برهنت المحسوسات والتجارب على صدقه وصحته، كما دلت الشرائع والفطر والعقول السليمة على حقيقته.

فإن الدين كله صلاح وإصلاح، وكله دفع للشرور والأضرار، وكله يدعو إلى الخير والهدى، ويحذر من الشر وأنواع الردى.

وعند عرض بعض النماذج من تعاليمه وتوجيهاته يظهر لكل عاقل منصف صحة هذا، وأن الخلق كلهم مضطرون إليه، وأنهم لا يستغنون عنه في حالة من أحوالهم؛ ذلك بأن الدنيا كلها قد جاشت بمشكلات الحياة، والبشر كلهم يتخبطون في دياجير الظلمات، فيهدون من وجه واحد ويضلون من وجوه أخرى، وقد يستقيم لهم أمر من بعض وجوهه،

ويقع الانحراف في بقية أنحاءه، وهذا ناتج من أحد أمرين:

- إما جهل بما دلّ عليه الدين وما أرشد إليه.

- وإما مكابرة وغي ومقاصد سيئة وأغراض فاسدة، حالت بينهم

وبين الصلاح الذي يعرفونه، كما هو الواقع كثيرًا.

لهذا ينبغي أن نذكر بعض مشاكل الحياة المهمة، مثل: مشكلة الدين، ومشكلة العلم، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والحرب والسّلم، والاجتماع والافتراق، والمحاب والمكاره، وغير ذلك مما اختلفت فيها أنظار الناس وتوجهاتهم، وما سلكه الدين الإسلامي فيها من المسالك الصالحة السديدة، وما أولاه نحوها من المنافع التي لا تعد ولا تحصى.

المشكلة الأولى

مشكلة الدين والعقيدة

وهذه المشكلة من أهم مشاكل الحياة وأعظمها، وعليها تنبني الأمور كلها.

وبصلاح الدين أو فساده أو عدمه تتوقف جميع الأشياء، وقد تفرق فيها البشر وسلكوا في دينهم وعقائدهم طرقاً شتى، كلها منحرفة معوجة ضارة غير نافعة إلا من اهتدى إلى دين الإسلام الحقيقي، فإنه حصلت له الاستقامة والخير والراحة من جميع الوجوه، فمن الناس من تلاعب بهم الشيطان، فعبدوا غير الله من الأشجار والأحجار والصور والأنبياء والملائكة والصالحين والطلحين، مع اعترافهم بأن الله ربهم ومالكهم وخالقهم وحده لا شريك له، فاعترفوا بتوحيد الربوبية وانحرفوا عن توحيد الإلهية الذي هو إفراد الله بالعبادة، وهؤلاء هم المشركون على اختلاف مذاهبهم وتباين طوائفهم، وقد دلت الكتب السماوية على شقائهم وهلاكهم.

وانفق جميع الرسل على الأمر بتوحيد الله والنهي عن الشرك، وأن من أشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، كما دلت العقول السليمة والفطر المستقيمة على فساد الشرك والتأله والتعبد للمخلوقات والمصنوعات، فالشرك باطل في الشرع، فاسد في العقل، عاقبة أهله

الهلاك والشقاء، ومن الناس من آمن ببعض الرسل والكتب السماوية دون بعض، مع أن الرسل والكتب يصدق بعضها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً، وتتفق في الأصول الكلية، فصار هؤلاء ينقض تكذيبهم تصديقهم، ويبطل اعترافهم ببعض الأنبياء وبعض الكتب السماوية تكذيبهم للآخرين من الرسل، فبقوا في دينهم منحرفين، وفي إيمانهم مُتَحَيِّرِينَ، وفي علمهم متناقضين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فحكم بالكفر الحقيقي؛ لأنه عرف أن دعواهم للإيمان دعوى غير صحيحة، ولو كانت صحيحة لآمنوا بجميع الحقائق التي اتفقت عليها الرسل، ولكنهم قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]، ولهذا دعواهم الإيمان دعوى كاذبة، فقال عنهم عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلِمَ تَقُولُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

ومن الناس طائفة ادّعت الفلسفة والعلم بالمعقولات، فجاءت بأكبر الضلالات وأعظم المحالات، فجحدت الربَّ العظيم وأنكرت وجوده، فضلاً عن الإيمان بالرسول والكتب وأمور الغيب، وجحدوا آيات الله واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً واستكباراً، فكذبوا بعلوم الرسل وما دلت عليه الكتب المنزلة من عند الله، واستكبروا عنها بما عرفوا من العلوم

الطبيعية وتوابعها، وأنكروا جميع الحقائق إلا ما أدر كوه بحواسهم وتجاربهم القاصرة الضيقة بالنسبة إلى علوم الأنبياء.

فعبدوا الطبيعة وجعلوها أكبر همّهم ومبلغ علمهم، واندفعوا وراء ما تقضيه طبائعهم، ولم يتقيدوا بشيء من الشرائع الدينية ولا الأخلاق الإنسانية، فصارت البهائم أحسن حالاً منهم، فإنهم نصبت منهم الأخلاق، واندفعوا وراء الشهوات البهيمية، فلم يكن لهم غاية يرجونها، ولا نهاية يطلبونها: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وصار المشركون على شركهم وكفرهم أحسن حالاً منهم، وأقل شراً منهم بكثير، والعجب الكثير أن هذا المذهب الخبيث جرف بتياريه في الأوقات الأخيرة جمهور البشر؛ لضعف الدين وقلة البصيرة، ولما وضعت له الأمم القوية الحبائل والمصائد التي هلك بها الخلق.

أما الدين الإسلامي؛ فقد أخرج الخلق من ظلمات الجهل والكفر والظلم والعدوان وأصناف الشرور إلى نور العلم والإيمان واليقين والعدل والرحمة وجميع الخيرات ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

[النحل: ٩٠]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي كلماته الدينية التي شرع بها الشرائع، وسن الأحكام، وقد جعلها الله تامة من جميع الوجوه، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، صدقًا في إخبارها عن الله وعن توحيده وجزائه وصدق رسله في أمور الغيب، عدلًا في أحكامها، وأمرها كلها عدل وإحسان وخيرات وصلاح وإصلاح، ونواهيها كلها في غاية الحكمة، تنهى عن الظلم والعدوان والأضرار المتنوعة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وهذا استفهام بمعنى النفي المقرر الذي تقرر حدوثه في العقول والفطر، فما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهي عنه، ولا نهي عن شيء فقال العقل: ليته أمر به، لقد أباح هذا الدين كل طيب نافع، وحرم كل خبيث ضار، ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فهو الدين الذي يوجه العباد إلى كل أمر نافع لهم في دينهم ودنياهم، ويحذرهم عن كل أمر ضار في دينهم ومعاشهم، ويأمرهم عند اشتباه المصالح والمفاسد والمنافع والمضار بالمشاورة في استخراج ما ترجحت

مصطلحته، ودفع ما ترجحت مفسدته.

وهو الدين العظيم الشامل، الذي أمر بالإيمان بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]. وهو الدين العظيم الذي شهد الربُّ العظيم بصحته وكماله، وشهد بذلك الكُمَّل من الخلق وخلاصتهم، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴿[آل عمران: ١٨ - ١٩].

وهو الدين الذي من اتصف به جمع الله له جمال الظاهر والباطن وكمال الأخلاق والأعمال، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

فلا أحسن ممن هو مخلص لله محسن إلى عباد الله، مخلص لله متبع لشريعة الله التي هي أحسن الشرائع وأعدل المناهج، فانصبغ قلبه بالإخلاص والتوحيد، واستقامت أخلاقه وأعماله على الهداية والتسديد.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

وهو الدين الذي فتح أهله القائلون به المتصفون بإرشاداته وتعاليمه القلوب بالعلم والإيمان، والأقطار بالعدل والرحمة والنصح لنوع الإنسان، وهو الدين الذي أصلح الله به العقائد والأخلاق، وأصلح به

الحياة الدنيا والآخرة، وألّف به القلوب المشتتة، والأهواء المتفرقة، وهو الدين العظيم المحكم غاية الأحكام في أخباره كلها، وفي أحكامه، فما أخبر إلا بالصدق والحق، ولا حكم إلا بالحق والعدل، فلم يأت علم صحيح ينقض شيئاً من أخباره، ولا حكم أحسن من أحكامه، أصوله وقواعده وأسسّه تساير الزمان السابق واللاحق، فحيثما طبقت المعاملات المتنوعة بين الأفراد والجماعات في كل زمان ومكان على أصوله، تم بها القسط والعدل والرحمة والخير والإحسان، لأنها تنزيل من حكيم حميد.

﴿ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ، ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۗ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]؛ حافظون لألفاظه عن الزيادة والنقص والتغيير، وحافظون لأحكامه عن الانحراف والنقص، بل هي في أعلى ما يكون من العدل والاستقامة والتيسير.

وهو الدين العظيم الذي يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، الصدق شعاره، والعدل مداره، والحق قوامه، والرحمة روحه وغايته، والخير قرينه، والصلاح والإصلاح جماله وأعماله، والهدى والرشد زاده.

وهو الدين الذي جمع بين مطالب الروح والقلب والجسد، أمر الله به المؤمنين بما أمر المرسلين؛ بعبادته والعمل الصالح الذي يرضيه، وبالأكل من الطيبات، واستخراج ما سخر الله لعباده في هذه الحياة، فدفع القائمين به حقيقة إلى كل علو ورقي وتقدم صحيح، من عرف شيئاً من

أوصاف هذا الدين عرف عظيم منة الله به على الخلق، وأن من نبذه وقع في الباطل والضلال والخيبة والخسران؛ لأن الأديان التي تخالفه ما بين خرافات ووثنيات، وما بين إلهاد وماديات، تجعل قلوب أهلها وأعمالهم كالبهائم بل هم أضل سبيلاً؛ لأن الدين إذا ترحلَّ من القلوب ترحلت الأخلاق الجميلة، وحل محلها الأخلاق الرذيلة، فهبطت بأهلها إلى أسفل الدركات، وصار أكبر همهم ومبلغ علمهم التمتع بعاجل الحياة، والحمد لله رب العالمين.

المشكلة الثانية

مشكلة العلم

لقد غلط كثير من الناس في مسمى العلم الصحيح الذي ينبغي ويتعين طلبه والسعي إليه على قولين متطرفين، أحدهما أخطر من الآخر:

فالأول: قول من قصر العلم على بعض مسمى العلم الشرعي، المتعلق بإصلاح العقائد والأخلاق والعبادات، دون ما دل عليه الكتاب والسنة؛ من أن العلم يشمل علوم الشرع ووسائلها، وعلوم الكون، وهذا قول طائفة ممن لم تبصر بالشرعية تبصراً صحيحاً، ولكنهم الآن بدءوا يتحللون من هذا الإطلاق، لما رأوا من المصالح العظيمة في علوم الكون، وحين تنبّه كثير منهم لدلالات نصوص الدين عليه.

والقول الثاني: قول من قصر العلم على العلوم العصرية، التي هي بعض علوم الكون، وهذا القول إنما نشأ من انحرافهم عن الدين وعلومه وأخلاقه، وهذا غلط عظيم حيث جعلوا الوسائل هي المقاصد، وحيث نفوا من العلوم الصحيحة والحقائق النافعة ما لا تنسب إليه العلوم العصرية بوجه من الوجوه، غرّهم ما ترتب عليها من الصناعات والمخترعات، وهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣]، فهم

فرحوا بعلومهم واستكبروا بها واحتقروا علوم الرسل، حتى نزل بهم ما كانوا به يستهزءون من الحق، ونزل بهم العذاب الذي وُعد به من كذب الرسل، عذبوا في الدنيا بالحثم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، وعموا عن الحق، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧].

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

أما مدلول العلم النافع ومسماه الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة: فهو كل علم أوصل إلى المطالب العالية، وأثمر الأمور النافعة، لا فرق بين ما تعلق بالدنيا أو بالآخرة، فكل ما هدى إلى السبيل ورقى العقائد والأخلاق والأعمال فهو من العلم.

وقسم العلوم إلى قسمين: مقاصد ووسائل توصل إليها وتعين عليها. فالمقاصد: هي العلوم المصلحة للأديان.

والوسائل: ما أعان عليها من علوم العربية بأنواعها، ومن علوم الكون التي ثمرتها معرفة الله ومعرفة وحدانيته وكماله ومعرفة صدق رسله. وثمرتها: الاستعانة بها على عبادة الله وشكره، وعلى قيام الدين، فإنه تعالى أخبر أنه سخر لنا هذا الكون، وأمرنا أن نتفكر فيه ونستخرج منافع الدينية والدنيوية.

والأمر بالشيء أمر به وأمر بما لا يتم إلا به، وذلك حث على معرفة علوم الكون التي يستخرج بها ما سخره الله لنا؛ لأن منافعها لا تحصل لنا عفواً من

دون طلب وفكر وتجارب، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فهذه المنافع لا تحصل إلا بالمعرفة بفنون الصنائع حتى يتم إنتاجها.

وقد تكاثرت نصوص الكتاب والسنة على الثناء على العلم وأهله وتفضيلهم على غيرهم، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وأنهم أهل الخشية لله والمعرفة به، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وأمر الجهال بسؤال أهل العلم.

وقد أمر بعبادات كثيرة، وعفا عن محرمات، والأمر بالشيء والنهي عنه لا يمكن امتثال الأمر واجتناب النهي إلا بعد علمه ومعرفته، فجميع الأوامر الشرعية والنواهي تدل على وجوب تعلم العلم الذي تتوقف عليه، كما أنه أباح معاملات، وحرم معاملات، لا يمكن تمييز الحلال والحرام منها إلا بالعلم، وقد ذمّ من لم يعرف حدود ما أنزل على رسوله من الكتاب والحكمة.

ومن ذلك أنه أمر بالجهاد في عدة آيات، وبإعداد المستطاع من القوة للأعداء، وأخذ الحذر منهم، ولا يتم ذلك إلا بتعلم فنون الحرب والصنائع التي تتوقف القوة والحذر منهم عليها.

وأمر بتعلم أمور التجارة والأصول الاقتصادية، حتى إنه أمر أن يُبتلى الأولاد الصغار اليتامى ويُعلموا التجارة وطلب المكاسب، قال تعالى:

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنَّ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾

[النساء: ٦]، فلم يأمر بدفع أموالهم إليهم حتى يُعلم رشدهم، ومعرفتهم لأُمور المكاسب والتجارة.

فهذه الشريعة الكاملة أمرت بتعلم جميع العلوم النافعة: من العلم بالتوحيد، وأصول الدين، ومن علوم الفقه والأحكام، ومن علوم العربية، ومن العلوم الاقتصادية والسياسية، ومن العلوم التي تصلح بها الجماعات والأفراد.

فما من علم نافع في الدين والدنيا إلا أمرت به هذه الشريعة وحثت عليه ورغبت فيه، فاجتمع فيها العلوم الدينية، والعلوم الكونية، وعلوم الدين، وعلوم الدنيا، بل إنها جعلت العلوم الدنيوية التي تنفع من علوم الدين.

وأما المتطرفون؛ فإنهم اقتصروا على بعض علوم الدين، فقصروا وغلطوا غلطاً فاحشاً.

وأما الماديون؛ فإنهم اقتصروا على بعض علوم الكون، وأنكروا ما سواها، فألحدوا ومرجت أديانهم وأخلاقهم، وصارت علومهم حاصلها أنها صنائع جوفاء، لا تزكي العقول والأرواح، ولا تغذي الأخلاق، فكان ضررها عليهم أعظم من نفعها، فإنهم انتفعوا بها من جهة ترقية الصنائع والمخترعات وتوابعها، وتضرروا بها من جهتين:

إحداهما: أنها صارت أكبر نكبة عليهم وعلى جميع البشر، لما ترتب عليها من الفناء والحروب المهلكة والتدمير.

الثانية: أنهم أعجبوا بها واستكبروا، فحقدوا لذلك علوم الرسل وأمور الدين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦] ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

[غافر: ٨٣]، فتبين مما ذكرنا أن العلوم النافعة في العاجل والآجل: هي العلوم التي جاءت في كتاب الله وسنة رسول الله، وأنها احتضنت كل علم نافع، ومعرفة صحيحة، لا فرق بين الأصول والفروع، ولا بين الدينية والدينية، كما احتضنت عقيدتها الإيمان بكل حق وحقيقة، وبكل كتاب أنزله الله، وكل رسول أرسله الله، والحمد لله.

المشكلة الثالثة

مشكلة الفنى والفقير

تنوعت مقاصد الخلق وسياساتهم في مسألة الغنى والفقير بحسب أغراضهم النفسية، لا بحسب اتباعهم للحق ونظرهم للمصالح العامة الكلية، وكلهم أخطأوا الطريق النافع، حيث لم يتقيدوا بهديات الدين الإسلامي، وتنوعت بهم الأفكار، وعملوا على مقتضى ذلك، فحصل بذلك شر مستطير، ووقعت فتن كبرى بين من يدعي نصرة الفقر والفقراء والعمال، وبين من يتمسك التمسك المزري بالثروات والأموال، ولهم في ذلك كلام طويل كله خطأ وضلال، وهدى الله المؤمنين إلى صراط مستقيم في جميع أمورهم عامة، وفي هذه المسألة خاصة، جاء الشرع - والله الحمد - بصلاح الأغنياء والفقراء بحسب الإمكان.

لما حكم الله تعالى قضاءً وقدرًا أن الخلق درجات، فمنهم الغني ومنهم الفقير، ومنهم الشريف ومنهم الحقير، لحكم عظيمة، وأسرار يضيق التعبير عن وصفها، فربط بعضهم ببعض بالروابط الوثيقة، وسخر بعضهم لبعض، وتبادلت بينهم المصالح العادلة، واحتاج بعضهم إلى بعض.

شرع الشارع الحكيم أولاً: أن يكونوا إخواناً، وألا يستغل بعضهم بعضاً استغلالاً شخصياً، بل أرشد كلاً منهم أن يقوم نحو الآخر بواجباته

الشرعية التي يتم بها الالتئام وتقوم بها الحياة.

أمر الجميع أن يتوجهوا بأجمعهم إلى المصالح العامة الكلية التي تنفع الطرفين، كالعبادات البدنية، والمشاريع الخيرية، وجهاد الأعداء ومقاومتهم، ودفع عدوانهم بكل وسيلة، كل منهم بحسب وسعه وقدرته، هذا ببدنه وماله، وهذا ببدنه، وهذا بماله، وهذا بجاهه وتوجيهه، وهذا بتعلمه وتعليمه؛ لأن الغاية واحدة، والمصالح مشتركة، والغاية شريفة، والوسائل إليها شريفة.

ثم أوجب في أموال الأغنياء فرضاً الزكاة، بحسب ما جاء في تفاصيلها الشرعية، وجعل مصرفها دفع حاجات المحتاجين، وحصول المصالح الدينية المقيمة لأموال الدنيا والدين، وحث على الإحسان في كل وقت وفي كل مناسبة، وأوجب دفع ضرورة المضطرين، وإطعام الجائعين، وكسوة العارين، ودفع الضرورات عن المضطرين، وكذلك أوجب النفقات الخاصة للأهل والأولاد، وما يتصل بهم، والقيام بواجبات المعاملات كلها الواقعة بين الناس، وأمرهم مع ذلك ألا يتكلموا في كسب الدنيا على حولهم وقوتهم، ولا ينظروا نظر استقرار وطمأنينة إلى ما عندهم، بل يكون نظرهم على الدوام إلى الله وإلى فضله، وتيسيره والاستعانة به، وأن يشكروه على ما تفضل به عليهم وميزهم به من الغنى والثروة، وأوجب عليهم أن يقفوا عند الحدود، فلا ينغمسوا في الترف والإسراف انغماساً يضر بأخلاقهم وأموالهم وجميع أحوالهم، بل يكونوا

كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وأمرهم مع ذلك أن يكون طلبهم للغنى والدنيا طلباً شريفاً نزيهاً، فلا يتلوثون بالمكاسب الخبيثة التي هي ما بين ربا أو قمار أو غرر أو غش أو خداع، بل يتقيدون بقيود الشرع العادلة في معاملاتهم كما تقيدوا بذلك في عباداتهم، وأمرهم أن ينظروا إلى الفقراء نظر الرحمة والإحسان، لا نظر القسوة والغلظة والأثرة والبطر والأشر والكبر.

ولهذه الإرشادات الحكيمة تكون الثروة الدينية في غاية الشرف وكمال الاعتبار، ويكون الغنى على هذا الوجه وصفاً محموداً، ونعت كمال ورفعة وعلو؛ لأن الشرع هدّبه وصفّاه، فحث على التباعد عن رذائله، ورغّب في اكتساب فضائله.

وأما ما صنعه الدين الإسلامي مع الفقراء، فقد أمرهم وكل من لم يدرك محبوباته النفسية أن يصبروا ويرضوا بقضائه وتدبيره، وأن يعترفوا أن الله حكيم له في ذلك حكم، وفيه مصالح متنوعة، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فنظرهم هذا يذهب الحزن الذي يقع في القلوب فيحدث العجز والكسل.

ثم أمرهم ألا ينظروا في دفع فقرهم وحاجاتهم إلى المخلوقين، ولا يسألوهم إلا حيث لا مندوحة عن السؤال عند الضرورة إلى ذلك، وأن

يطلبوا دفع فقرهم من الله وحده لا شريك له، بما جعله من الأسباب الدافعة للفقر الجالبة للغنى، وهي الأعمال والأسباب المتنوعة، كل واحد يشتغل بالسبب الذي يناسبه، ويليق بحاله، فيستفيد بذلك تحرره من رق المخلوقين، وتمرنه على القوة والنشاط، ومحاربة الكسل والفتور.

ومع ذلك لا يقع في قلوبهم حسد للأغنياء على ما آتاهم الله من فضله، ﴿وَلَا تَنَّمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢]. وأمرهم أن ينصحوا في أعمالهم ومعاملاتهم وصناعاتهم، وألا يتعجلوا الرزق بالانغماس في المكاسب الدنيئة التي تذهب الدين والدنيا.

وأمرهم بأمرين يعينانهم على مشقة الفقر:

الاقتصاد في تدبير المعاش.

والاقتناع برزق الله؛ فالرزق القليل مع الاقتصاد الحكيم يكون كثيرًا، والقناعة كنز لا يفد وغنى بلا مال.

فكم من فقير وفق للاقتصاد والقناعة لا يغبط الأغنياء المترفين، ولا يتبرم بقلة ما عنده من الرزق اليسير.

فمتى اهتدى أهل الفقر بإرشادات الدين من الصبر والتعلق بالله، والتحرر من رق المخلوقين، والجد والاجتهاد في الأعمال الشريفة النافعة، والاقتناع بفضل الله، هانت عليهم وطأة الفقر وعناؤه، ومع ذلك فهم لا

يزالون يسعون في تحصيل الغنى، ويرجون ربهم ويتظرون وعده، ويتقون الله، فإنه ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

فهذه التعاليم الدينية والإرشادات من الله ورسوله لأهل الغنى والفقير تجلب لهم الخيرات، وتمنعهم من الشرور والمضرات، وتنتج لهم أجمل الثمرات العاجلة والآجلة، فهذا الحل الوحيد من الرب المجيد لمشكلة الغنى والفقير، وما سوى ذلك فعناء وشقاء، وضرر وهلاك، والله الموفق.

ونظير هذه المسألة مسألة الصحة والمرض، فإن الشريعة الإسلامية جاءت بأكمل الأمور فيها، أمرت بكل ما يحفظ الصحة وينميها، وما يدفع الأمراض أو يخففها بحسب الإمكان، وفصلت في هذا الموضوع تفاصيل نافعة، تدور على حفظ الصحة وتنميتها، والحماية من جميع المؤذيات والأمور الضارة، وعلى السعي في التحرر من الأمراض قبل نزولها، ومداواتها بعد نزولها، وأمرت مع ذلك بالتوكل على الله، والاعتماد عليه، والعلم بأنه تعالى هو المعطي للنعيم، الدافع للنقم، بلطفه وقدرته ورحمته، وبما جعله من الأسباب الكثيرة التي علمها الله العباد، وأمرهم بسلوكها، وأمر أيضًا بمقاومة الأمراض بأمور أخرى غير الأدوية الحسية، أمر بالصبر لله على المكارِه إيمانًا به، واحتسابًا لثوابه، فإنه بذلك تخف مشقة الأمراض بما يحصل للصابر المحتسب من الإيمان واليقين والثواب العاجل والآجل، وكذلك أمر بقوة الاعتماد على الله

عند نزول المصائب والمكاره، وألا يخضع الإنسان ويضعف قلبه وإرادته وتستولي عليه الخيالات التي هي أمراض فتاكة، فكم من مرض يسير بسيط عظمت وطأته بسبب ضعف القلب وخوره وانخداعه بالأوهام والخيالات، وكم من مرض عظيم هانت مشقته وسهلت وطأته حين اعتمد القلب على الله، وقوي إيمانه وتوكله، وزال الخوف منه، وهذا أمر مشاهد محسوس.

فالدين الإسلامي أمر بالأمرين في وقت واحد: أمر بفعل الأسباب النافعة، وبالاعتماد على الله في نفعها، وتحصيل المنافع ودفع المضار، بحسب الاستطاعة، وكذلك النعم، والمسار، والمكاره، والمصائب، جاءت شريعة الإسلام فيها بأكمل الحالات.

أمر الله ورسوله بتلقي النعم وبالاقتدار إلى الله فيها، والاعتراف التام بفضل الله بتقديرها وتيسيرها، وشكر المنعم بها، شكرًا متتابعًا، وتصريفها فيما كانت لأجله، والاستعانة بها على عبادة الله، وألا يكون العبد عندها أشراً، ولا بطراً، بل متواضعًا شاكرًا، وأمر العبد أن يغتنم الفرصة النافعة في النعم، فيربح عندها أرباحًا عاجلة وآجلة، يغتنم فرصة العافية والصحة والقوة والجدة والجاه والأولاد، فلا يغبن فيها بحيث تكون نعمًا حاضرة مؤقتة، بل يستخرج منها نعمًا باقية، وخيرًا متسلسلاً، ونفعًا مستمرًا.

وفي الحديث: «اغتنم خمسًا قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك

قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك».

فمتى عرف العبد المقصود من النعم، وأنها مجعولة وسائل إلى خيرات الآخرة، اجتمع له الأمران:
- التمتع بها عاجلاً.

- والاستفادة من خيراتها آجلاً، فيؤدي واجبها ومستحبها.

وبذلك تكون نعمًا حقيقية دينية ودنيوية، عكس حالة المنحرفين عما جاءت به الشريعة، الذين يتمتعون بها كما تتمتع الأنعام السائمة، ويتناولونها بمقتضى الشهوة البهيمية، فالنعم في حقهم سريعة الزوال وشيكة الانفصال، لا تعقبهم إلا الحسرة والندامة، والأولون يشاركونهم في التمتع العاجل، وربما زادوا عليهم براحة القلب، وطمأنينة النفس، والسلامة من الهلع والجشع.

وأما المصائب؛ فلما كانت لا بد منها للخلق، ولا أحد يسلم منها، أعد الشارع الحكيم لها عدتها، وأرشد عباده إلى الصبر والتسليم، والاحتساب لثوابها، وألا يتلقاها العبد بجزع وخور وضعف نفس، بل بقوة وتوكل على الله وإيمان صادق، وبذلك تخف وطأتها، وتهون مشقتها، ويحصل من الثواب وزيادة الإيمان أضعاف أضعاف ما حصل من المصيبة.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ

وَأِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿البقرة: ١٥٥-١٥٧﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ^ط وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

فانظر هذه الإرشادات الحكيمة في هداية الشريعة إلى تلقي النعم والمسار والمصائب والمضار، كيف ترى القلوب فيها مطمئنة، والحياة طيبة، والخير حاصلًا ومأمولًا، والربح مستمرًا، «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

فأين هذه الحالة الجليلة العالية من حالة المنحرفين عن الدين، الذين إذا أصابتهم النعم بطروا ومرحوا بالبهائم، وتجبروا على عباد الله، وطمعوا وبغوا، وإذا أصابتهم المكروه جزعوا وضعفوا، وربما أدت بهم الحال إلى الانتحار؛ لعدم الصبر وللهلوع والجزع الذي لا يحتمل، نسأل الله العافية.

المشكلتان الرابعة والخامسة

السياسة الداخلية والخارجية وتوابعها

قد قرّرت شريعة الإسلام مسائل السياسة أكمل تقرير، وهدت إلى جميع ما ينبغي سلوكه مع المسلمين ومع غيرهم بأحسن نظام وأعدله، وجمعت فيه بين الرحمة والقوة، وبين اللين والشفقة، والرحمة بالخلق، مهما أمكنت الأحوال، فإذا تعذر ذلك استعملت القوة بحكمة وعدل، لا بظلم وعنف.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۗ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۗ ﴾ [النحل: ٩٠ - ٩١].

فأمر الله بالعدل مع كل أحد، وبالإحسان والرحمة لكل أحد، وخصوصاً القرابة ومن لهم حق على الإنسان، ونهى عن الفحشاء والبغي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم، وأمر بوفاء العهود والمحافظة عليها، وحذر من نقضها، وهذه الأمور المأمور بها والمنهي عنها؛ منها ما هو واضح جلي عينت على المسلمين سلوكها، ولم تجعل لهم في ذلك خيرة ولا معارضة، وهي التي نصّ الشارع على أعيانها ولم يكل بيانها إلى أحد.

فهذا النوع يدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]،
 ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقد تتبع هذا النوع العظيم فوجد - والله الحمد - مطابقاً للعدل والحكمة، موافقاً للمصالح، دافعاً للمفاسد.

والقسم الثاني: الأمور المشتبه في أصلها، أو في تطبيقها على الواقع، وإدخال الأمور الواقعة فيها نفيًا وإثباتًا، وطلبًا وهربًا، فهذا قد أمروا أن يتشاوروا فيه، وينظروا فيه من جميع نواحيه، ويتأملوا ما يتوقف عليه من الشروط والقواعد، وما يترتب عليه من الغايات والمقاصد، ومقابلة المصالح والمضار وترجيح الأصلح منها، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى عن جميع المؤمنين: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وهذا النوع قد وسع الشارع فيه الأمر، بعدما قرر القواعد والأسس الموافقة لكل زمان ومكان، مهما تغيرت الأحوال وتطورت الأمور، فالقواعد الشرعية إذا سلكت في كليات الأمور وجزئياتها، صلحت بها

الأمر، واستقامت الدنيا والدين، وصلحت أمور العباد، واندفعت الشرور والمضار عنهم، ولكنها تحتاج إلى عقد مجالس تجمع الرجال العقلاء الناصحين، أولي العقول الرزينة والأحلام الواسعة، والرأي المصيب، والنظر الواسع، وتبحث فيها القضايا الداخلية واحدة بعد واحدة، بحثاً يشمل نواحي القضية، وتصورها كما ينبغي، وتصور ما تتوقف عليه، وتتم به إن كانت مقصوداً تحصيلها، وتصور ما يترتب عليها من الفوائد والمصالح الكلية والجزئية، وبحث أحسن طريق لتحصيلها وأسهله، وبحث القضايا الضارة التي يطلب دفعها بتبع أسبابها وينابيعها التي تسربت منها، وحسمها بحسب الإمكان، ثم السعي في إزالتها بالكلية إن أمكن، وإلا بتخفيفها وتلطيفها، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

ومن أعظم الأصول الشرعية حث المسلمين على القيام بدينهم، والقيام بحقوق الله وعبوديته، والقيام بحقوق العباد، والحث على الاتفاق واجتماع الكلمة، والسعي في أسباب الألفة والمحبة، وإزالة الأحقاد والضغائن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصَبَحْتُمْ
بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ﴿وَأَعْتَصِمُوا

يُحِبُّ إِلَهَ جَمِيعًا ﴿ [آل عمران: ١٠٣]، إلى غير ذلك من النصوص الدالة على هذا الأصل العظيم، الذي به تستقيم الأحوال، ويرتقي به المسلمون إلى أعلى الكمال.

وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿ [الأنفال: ٤٦ - ٤٧]، فأمر بطاعته وطاعة رسوله.

ويدخل في ذلك جميع الدين، ونهى عن التنازع الذي يوجب تفرق القلوب، وحدثت العداوات المحللة للمعنويات، وأمر بكثرة ذكره المعين على كل أمر من الأمور، وبالصبر الذي يتوقف عليه كل أمر.

وأمر بالإخلاص والصدق، ونهى عما يصاد ذلك من الرياء والفخر والبطر والمقاصد السيئة وإرادة إضلال الخلق، وقال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴿ [الأنفال: ٦٠]، فأمر بإعداد المستطاع من القوة، فيشمل القوة السياسية والعقلية، والصناعات، وإعداد الأسلحة، وجميع ما يتقوى به على الأعداء، وما به يرهبونهم، وهذا يدخل فيه جميع ما حدث ويحدث من النظم الحربية، والفنون العسكرية، والأسلحة المتنوعة، والحصون والوقايات من شرور الأعداء، قال تعالى: ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا خَدُّوا حُدُرَكُمْ ﴿ [النساء: ٧١]، ولكل وقت ومكان من هذه الأمور ما يناسب

ذلك، فانظر كيف كانت هذه التعاليم الشرعية هي السبب الوحيد والطريقة المثلى لسلوك أقوى السياسات الداخلية والخارجية، وأن الكمال والصلاح بالاهتداء بها، والاسترشاد بأصولها وفروعها، وأن النقص الحاصل والنقص المتوقع إنما يكون بإهمالها وعدم العناية بها.

ومن السياسة الشرعية أن الله أرشد العباد إلى قيام مصالحهم الكلية، بأن يتولى كل نوع منها طائفة تتصدى للإحاطة علمًا بحقيقتها وما تتوقف عليه، وما به تتم وتكمل، وتبذل جهودها في ترقيتها بحسب الإمكان، قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ولا شك أن القيام بالمصالح العامة على هذا الوجه الذي أرشد الله إليه هو السبب الوحيد للكمال الديني والديني، كما هو مشاهد يعرفه كل أحد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وهذا يشمل دعوة المسلمين الذين حصل منهم إخلال ببعض أمور الدين، ويشمل دعوة الكفار؛ الأولون يدعون إلى تكميل دينهم، والآخرون يدعون إلى الدخول في دين الإسلام الذي به صلاح البشر، وتكون هذه الدعوة بالحكمة التي

هي سلوك أقرب طريق وأنجح وسيلة يحصل بها تحصيل الخير أو تكميله، وإزالة الشر أو تقليده، بحسب الزمان والمكان، وبحسب الأشخاص والأحوال والتطورات.

وكذلك بالموعظة الحسنة، والموعظة بيان وتوضيح المنافع والمضار، مع ذكر ما يترتب على المنافع من الثمرات النافعة عاجلاً وآجلاً، وما يقترن بالمضار من الشرور عاجلاً وآجلاً، ووصفها الله بأنها موعظة حسنة؛ لأنها في نفسها حسنة وطريقها كذلك، وذلك بالرفق واللين والحلم والصبر وتصريف أساليب الدعوة.

وكذلك إذا احتيج في الدعوة إلى مجادلة لإقناع المدعو، فلتكن المجادلة بالتي هي أحسن؛ يدعى المجادل إلى الحق، ويبين محاسن الحق ومضار ضده، ويجاب عما يعترض به الخصم من الشبهات، كل ذلك بكلام لطيف، وأدب حسن، لا بعنف وغلظة، أو مخاشنة أو مشاتمة، فإن ضرر ذلك عظيم، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا أَلْقَبُ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولنقتصر على هذا الأنموذج، فإنه يحصل به المقصود، والله أعلم، وصلى الله على محمد وسلم.

حرر في ٥ ربيع الآخر سنة ١٣٧٥ هـ

فهرس المحتويات

الرسالة الأولى:

- ٣ أصول عظيمة من قواعد الإسلام.....
- ٥ مقدمة.....
- القاعدة الأولى: الدين كله مبنى على عبادة الله وحده، والاستعانة
٧ به وحده.....
- القاعدة الثانية: الدين الحق هو ما جاء به الرسول **صلى الله عليه وسلم** من
١٥ كتاب الله وسنة رسوله.....
- القاعدة الثالثة: الإيمان بالله هو الأصل الذي دعت إليه جميع الرسل،
وبه الرقي الحقيقي في الدنيا والآخرة.....
- ٣٢ القاعدة الرابعة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق
والتواصي بالصبر.....
- ٤١ القاعدة الخامسة: الدين الإسلامي هو الصلاح المطلق ولا سبيل إلى
٤٦ صلاح البشر الصلاح الحقيقي إلا بالدين الإسلامي.....

* * * * *

الرسالة الثانية:

- الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية
٥٧ داخلية في الدين الإسلامي.....
- ٥٩ مقدمة.....

فهرس المحتويات

- ٦١ فصل: معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾
- ٦٧ فصل: التفكير في كيفية جريان الطعام والشراب
- ٦٩ فصل: «نعمُ الله الظاهرة والباطنة»
- ٧٠ فصل:
- ٧٣ فصل: الله أعطى كل شيء خلقه
- ٧٥ فصل: إرسال الرسل بالبينات، وإنزال الكتاب والميزان والحديد ...
- ٨٠ فصل: أمّر الله بالتفكر والتدبر
- ٨٢ فصل: أمر الله بالمشورة
- ٨٤ فصل: ضلال الملحدين القائلين بوجود الحوادث صدفة
- ٨٦ فصل: الإصلاح والصلاح
- ٨٧ فصل: جلال أحكام الشرع وعدالتها
- ٨٩ فصل:
- ٩٤ فصل: من أدلة القرآن العقلية والنقلية
- ٩٩ فصل: العلوم المخالفة للدين
- ١٠٢ فصل: من ترويح المنحرفين عن الحق
- ١٠٤ فصل: قول بعض الناس: هذا وقت العلم والمعارف
- ١٠٧ فصل: أعظم آفات العلم
- ١١٠ فصل: من علامات المنحرفين في أديانهم وعقولهم

فهرس المحتويات

الرسالة الثالثة:

- ١١٣ البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله.....
- ١١٨ من الأدلة: التفكير في خلق الإنسان والأكوان.....
- ١٢١ من الأدلة: رحمة الله العامة.....
- ١٢٢ من الأدلة: النظر في أحوال المضطرين.....
- ١٢٤ من الأدلة: إجابة الله للدعوات.....
- ١٢٥ من الأدلة: آيات الأنبياء.....
- ١٢٦ من الأدلة: الكتب السماوية والسنة النبوية وما فيها من الشرائع.....
- ١٢٨ من الأدلة: الفطرة السوية مضطرة إلى الاعتراف بالله.....
- ١٢٩ من الأدلة: الثواب المعجل للمحسنين، والعقاب المعجل للظالمين.....
- ١٣١ فصل: تابع لما قبله طرق معرفة الله واسعة غير منحصرة.....
- ١٣٢ أمثلة وحكايات في الاستدلال على الله.....
- ١٤٢ فصل: من الأدلة أن وجود الرب أظهر من كل شيء.....
- ١٤٤ من الأدلة: أيام الله ووقائعه.....
- ١٤٥ من الأدلة: ما عليه الأنبياء من الكمالات وما لهم من الآيات.....
- ١٤٦ من الأدلة: اجتماع كلمة الرسل على توحيد الله.....
- ١٤٧ من الأدلة: شهادة الله وشهادة الملائكة وأولي العلم والمهتدين.....
- ١٥١ من الأدلة: العواقب الحميدة للمؤمنين، والذميمة للكافرين.....
- ١٥٢ من الأدلة: إخبار الله ورسوله **صلى الله عليه وسلم** عن أمور من الغيب.....

فهرس المحتويات

- ١٥٣ من الأدلة: تحدي الله لجميع الإنس والجن أن يأتوا بمثل القرآن.....
- ١٥٤ من الأدلة: الآثار الجليلة المترتبة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.....
- ١٥٦ من الأدلة: إحكام الشريعة وصدق أخبارها واتفاق أحكامها.....
- ١٦٠ فصل: من الأدلة: صدق الرسل ووجوب توقييرهم وتقديم أقوالهم....
- ١٦٢ كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله في آيات الأنبياء.....
- فصل: من الأدلة: أن ما جاء به الرسل فهو الحق النافع، فما خالفه
- فهو باطل.....
- ١٦٦ فصل: من الأدلة: الفطرة في قلوب العباد، وخصوصاً الأنبياء.....
- ١٦٨ فصل: من الأدلة: الإجماع من المسلمين وممن عرف حال النبي صلى الله عليه وسلم..
- ١٧٠ الخاتمة.....
- ١٧٣

* * * * *

الرسالة الرابعة:

- ١٧٥ **أصول الدين**.....
- مقدمة.....
- ١٧٧ فصل: (١).....
- ١٩١ فصل: (٢).....
- ١٩٧ فصل: (٣).....
- ٢٠٠ فصل: (٤).....
- ٢٠٤

* * * * *

فهرس المحتويات

الرسالة الخامسة:

٢٠٩الدين الصحيح يحل جميع المشاكل
٢١٣المشكلة الأولى: مشكلة الدين والعقيدة
٢٢٠المشكلة الثانية: مشكلة العلم
٢٢٥المشكلة الثالثة: مشكلة الغنى والفقير
	المشكلتان الرابعة والخامسة: السياسة الداخلية والخارجية
٢٣٣وتوابعها

* * * * *

٢٣٩فهرس المحتويات
-----	---------------------

* * * * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«... وكلُّ مُبطلٍ وكافرٍ ومبتدعٍ مقهورٍ مستدلٍّ فهو يظنُّ بربه هذا الظنَّ، وأنه أولى بالنصر والظفر والعلو من خصومه، فأكثر الخلق بل كلُّهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق وظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ، وأنه يستحقُّ فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني ما أستحقُّه، ونفسه تشهد عليه بذلك وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتنَّ نفسه وتغلغل في معرفة دفاتنها وطواياها رأى ذلك فيها كامناً كُمون النار في الرِّناد، فأقدَح زناد من شئتُ يُبيئكَ شراره عما في زناده، ولو فتنَّت من فتنَّته لرأيتُ عنده تعتُّباً على القدر وملامةً له واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمُستقِلٌّ ومستكثِر، وفتَّش نفسك هل أنت سالم من ذلك؟

فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة وإلا فإنني لا إخالك ناجياً

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضوع، وليتب إلى الله ويستغفره كل وقت من ظنه بربه ظنَّ السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي ماوى كل سوء ومنبع كل شرٍّ، المركبة على الجهل والظلم؛ فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين، الغني الحميد الذي له الغنى التام والحمد التام والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك وأفعاله كلها حكمة ومصالحة ورحمة وعدل، وأسمائه كلها حسنى.

فإن الله أولى بالجميل
وكيف بظالم جان جهول
أيرجى الخير من ميت بخيل؟
كذاك وخيرها كالمستحيل
فتلك مواهب الرب الجليل
من الرحمن فاشكُر للدليل

فلا تظنُّ بربك ظنَّ سوء
ولا تظنُّ بنفسك قط خيراً
وقل يا نفس ماوى كل سوء
وظنُّ بنفسك السوأى تجدها
وما يك من تقى فيها وخير
وليس بها ولا منها ولكن